

الفصل الأول
جامعة الزهد الأولى
وأهم روادها

إمام جامعة الزهد الأولى محمد ﷺ

لا أحد يستطيع أن يقدم بين يدي رسول الله ﷺ بهذه المنزلة على مر التاريخ ؛ لأنه ﷺ هو الذي رسم على صحاف التاريخ كيفية الزهد ، وهو حقًا كما قال الله تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم] .

فقانون الزهد الذي قرره رسول الله ﷺ هو من تشريع الله ، تشريع إلهي لا يعدله تشريع ، ولا يضاهيه قانون ، لذلك يعد مقياسًا يُقاس عليه سلوكنا وتقوّم به أعمالنا .

إنه رسم للتاريخ خطأ إذا تجاوزته أظلم وحلك وانتهت قصته ، وراحت مدته ، فهو إمام جامعة الأخلاق الخالدة ، وسيد الزهاد وأى سيادة !! إنها سيادة في كل حين من الدهر ، وتهيمن على كل عصر أو زمان .

وكما قال الإمام ابن القيم - عن ريادة رسول الله ﷺ في كل شيء : وما ينبغي أن يُعلم : أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ في أعلاها ، وخصه بذروة سنامها ، فإذا احتجّت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمها على فضلها عن غيرها ، أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضًا .

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف ، احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك .

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم ، احتج به الداخلون

في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره .

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغنى الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها ، احتج به العارفون على فضل المعرفة .

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين ، والغلظة عليهم ، والبطش بهم، وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ، احتج به أرباب الخلق الحسن ، والمزاج المباح الذي لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب .

وإذا احتج به المتورعون عن الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة، والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفكر، فكان يصوم حتى يقال : لا يُفطر، ويُفطر حتى يُقال : لا يصوم .

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فأجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن و..... إلخ^(١).
حقاً إنه جامعة متكاملة تتراجع عنها سوابق الهمم، ويقصر عن إدراكها أهل السبق.

وإذا نظرنا بعين التقصى عن الزهد في صاحب الجوامع، وجدناه في رتبة لا تسامى، وفي الوقت نفسه يسود ملوك الأرض في الغنى، ويؤم معالي الخلق، ومعارج الشرف في العالمين، ولكن مع ملكه زهد فيما ملك، ونزعت همته إلى أسمى مراتب الجوع والجهاد.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها في ذلك : ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُر حتى مضى لسبيله^(٢) أى : حتى قبض ﷺ.

فالعبرة في ذلك أن جوع الأبدان هو بعينه شبع الأرواح، فإذا تحمت الأبدان وتناقل الشحم وغاب العظم في اللحم جاعت الأرواح، وتلك مخالفة في عرف المقربين.

فالنبي ﷺ عمل على إطعام روحه، ولم يركن إلى الجسد إلا قليلاً، وهذه حبيته السيدة عائشة تحكى لابن أختها عروة بن الزبير^(٣) عن حال رسول الله

(١) الإمام ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص ٢٢٨ باختصار شديد.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب : الزهد، ج ١٨ ص ١٠٦، طبعة محمود توفيق، بدون تاريخ.

(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام، أمه السيدة أسماء بنت أبى بكر "رضى الله عنهما". انظر : صفة الصفوة، للإمام أبى الفرج بن الجوزى، ج ١ ص ٢٩٤، بتحقيق : أ. طارق محمد عبد المنعم، طبعة دار ابن خلدون، بدون تاريخ.

قائلة : « والله يا بن أختي ، إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدَ في أبيات رسول الله ﷺ نار ، قال : يا خالة ، فما كان يُعيشكم ؟ قالت : الأسودان ، التمر والماء ، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها فسقيناه ^(١) . وكان النبي ﷺ يقبل تلك المنائح ليس طمعاً فيها ، ولا حاجة إليها ، لا إنه يقبلها لحياته من ردها على صاحبها ، وجبراً لخاطر أهلها .

كما زهد ﷺ عن الترف في اللباس والنعال والقُمص ، إنه تقمص بالزهد لباس العز ، فالترفع عن مطالب الدنيا عز ، ومع تملك النبي لأسباب الغنى ، أبى أن يجعل للغنى يداً عليه ، فساد الغنى بالغنى عن الغنى ، حتى خشعت أمامه العيون الناضرة إليه ، وعنت الجباه إذا اتجهت إليه .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشاء ، ولا عشاء لغذاء ، ولا اتخذ من شيء زوجين ، ولا قميصين ، ولا ردائين ، ولا إزارين ، ولا رثى فارغاً ، إما يخصف نعلًا لرجل مسكين ، أو يخيط ثوبًا لأرملة ^(٢) .

إنه زهد وترفع فوق كل شهوة ، وبَعُد عن تعكير النفس بغبار الدنيا الشائر ، ليزيل أركان الصفاء الروحي الذي به كيان الوجود الإنساني .

وقد يتسلل الفكر عن حدود العقل ، أو ينفك العقل من عقاله ويشرد من وراء ذلك إلى القول بدلالة ما سبق على فقر رسول الله ﷺ ، ولكن نقول للعقل : لا ، إن النبي ﷺ يدفع ذلك عن نفسه ، فقد كان ﷺ زاهدًا ولم يكن

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي ، كتاب : الزهد ، ج ١٨ ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

فقيرًا، إنه كان يملك من المال ما يكفيه قبل البعثة وبعدها، بدلالة قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَالِيًّا قَآغِيًّا ﴾ [الضحى] أى : وجده ذا عيلة وفقر فأغناه بالمال .

قال الإمام الفخر الرازى فى هذا المعنى : إن الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب، ولما اختلت أحوال أبى طالب أغناه الله بهال خديجة، ولما اختل ذلك أغناه الله بهال أبى بكر، ولما اختل ذلك أمره الله بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أغناه بالغنائم، فكان يأخذ منها ما حدده الله له، ولم يكن بالشىء الهين، ولا بالقليل، قال تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١] ، وكان ما يأتية يمكنه أن يعيش به عيشة طيبة ، ولا يبيت يومًا طويًا .

والذى ينظر إلى عطاء رسول الله ﷺ يدرك مدى الغنى الذى ملأ عليه الدنيا، فاستفرغه فى العطاء للساثلين والفقراء والمساكين .

وفى ذلك يقول سيدنا أنس بن مالك ؓ : « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنًا بين جبلين ، فرجع - الرجل - إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا، فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة ^(١) .

ورجل يعطى هذا العطاء لا يمكن أن يكون فقيرًا؛ إذ كيف يكون فقيرًا وقد تكثر الطعام بين يديه حتى إنه أطعم جيشًا بأكمله من حفنة تمر ، وذلك يوم الخندق، فكيف لرجل أعطاه الله هذه المعجزة أن يكون فقيرًا ^(٢) !

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب : الفضائل، باب : ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال : لا وكثرة عطائه، ج ٥ ص ٦٨ .

(٢) د . محمود أبو الفتوح السيد، المدارس الزهدية فى صدر الإسلام، نشأتها وأهم روادها، ص ٣٠ وما بعدها بتصرف واختصار، طبعة سنة ١٤١٨ هـ - سنة ١٩٩٨ م، بدون مطبعة .

وكيف لهذا النبي الذي فتحت له أبواب السماء لتستقبل دعاءه لترد إليه بالاستجابة لا غيرها أن يكون فقيراً؟! فلو تمنى على الله ملك الأرض لاستجاب الله له .

إن الأمر أرقى من ملك الدنيا والانشغال بها ، فذلك رزق زائل، إنه أمر قرره الله على رسوله بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ ۚ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ﴾ (١) وأمر أهلك بالصلوة وأصطبر عليها لا تسفك رزقاً نحن نرزقك والعقبة للثقوى ﴿٢﴾ [طه] .

وقرره أيضاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۖ﴾ (٣) لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ لِلْمُؤْمِنِينَ جَنَاحَكَ ﴿٤﴾

[الحجر] .

إذن القضية أرقى من حاجيات الدنيا، فهي شيء لا يذكر في مهمة صاحب الرسالة ﷺ، لذلك وقف ﷺ منها موقفاً حاسماً ، لشدة فهمه لحقيقتها التي أثبتها بقوله : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » (١) .

والمعنى: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى من النعيم المقيم والراحة الخالصة من نقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل له في الدنيا من تكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم والشقاء الأبدى (٢) .

(١، ٢) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، كتاب : الزهد ، ج ١٨ ص ٩٣ ، مرجع سابق .

المهم أن النبي ﷺ علمه ربه أن الدنيا سجن ضيق والآخرة سعة وتحرر، فزهد عن السجن ليجد الحرية الباقية، وعلم ذلك أصحابه .

وفي القول النبوي انتباهة بالغة، ودرس مَوْجَّه إلى القلوب، فإذا تحولت قبله القلب من سجن الدنيا اتصلت النفس بالله تعالى، واستماتت في سبيل أداء حقوقه، حَتَّى يَفْنَى صاحبها عن الفناء ويبقى مع الله، فإذا تكلم فبالله، وإذا سمع فمن الله، وإذا تحرك فلله، وإذا سكن فمع الله، فهو بالله والله ومع الله، فكأنه حيثنذ في الجنة، فلا يشعر إذا انصرف عائد إلى الدنيا إلا وكأنه عائد إلى سجن بعد سعة، فيؤثر السعة على الضيق، ويبقى زاهدًا عن الدنيا لئلا يُحْرَم لذة الحياة مع الله تعالى.

وتلك أسمى ثمار الحديث الشريف؛ لذا أوصى النبي ﷺ أصحابه في مدرسة الزهد بالغربة عن الدنيا، وكأنه يأمرهم بخلع أقدامهم عن وطن الأجساد، ومن ذلك ما نصح به سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بعد أن أخذ بمنكيه وقال : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» ^(١).

وفي قول النبي ﷺ إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يُبلّغه المحل ^(٢).

وعلى هذا القياس انطلق الدرس النبوي في جامعة الزهد الأولى لبحث العالمين على عدم الركون لمتع الدنيا، وخلع صفاتها عن القلب .

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه، انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، كتاب : الترقات، باب : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، ج ١١ ص ٢٨٠، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة ١٤١٠ هـ - سنة ١٩٨٩ م.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨١.

وفي التعليق على هذا الدرس النبوى يقول شيخ الحكماء الإمام العز بن عبد السلام :

تأملت حقيقة هذا الحديث ، فرأيت أن الأرواح خلقت قبل الأجساد، ثم أفيضت من عالمها الروحانى النورانى، فأودعت ظلمة هذا الجسد الترابى الطبيعى الجثمانى، والجسد مخلوق من التراب، والتراب كائن قبل كون آدمى، فهما جُلُبا غريبين غُربا عن وطنهما، وأبعدا عن أصليتهما ، فاجتمعا اجتماع غربة، كل واحد منهما يشير إلى وطنه، ويطير إلى سكته، فالجسد أخلد إلى الأرض، والروح بدون السمو لم يرض^(١) .

والنبي ﷺ أدرك تلك الحقيقة، فأراد أن يسمو بطلابه عن الإخلاق إلى الجسد الترابى، فأنصتوا إليه فحجبوا أنفسهم عن الدنيا، فحجبوا أنفسهم عن النار، وعاشوا مجاهدين فكشفت لهم الجنة .

إنهم أدركوا معنى قول سيد الزهاد ﷺ فيها رواه أبو هريرة عنه: « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »^(٢). والعرض : هو متاع الدنيا^(٣). وقال ﷺ معلما أبا ذر معنى الزهد الحقيقى : « يا أبا ذر ، أترى كثرة المال هو الغنى ؟ ».

فقال : أبو ذر : نعم.

قال : « وترى قلة المال هو الفقر ؟ » .

(١) الإمام العز بن عبد السلام، زيد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز، بتحقيق : د . حسن جبر سقير، ص ٦١، طبعة دار الحسين الإسلامية.

(٢) رواه الإمام البخارى فى صحيحه. انظر : فتح البارى، ج ١١، كتاب : الرقاق، باب : الغنى غنى النفس، ص ٣٢٧.

(٣) الإمام ابن حجر العسقلانى، المرجع السابق، الصفحة نفسها .

فقال أبو ذر: نعم . يا رسول الله .

قال : «إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب» ^(١).

والمعنى - كما قال العلامة الفقيه أبو الحسن بن بطال : ليس حقيقة الغنى كثرة المال؛ لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتى ، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو مَنْ استغنى بما أوتى ، وقنع به ورضى ، ولم يحرص على الازدياد ، ولا ألح في الطلب، فكأنه غنى ^(٢).

إنها مدرسة رسول الله ﷺ فيها تلقى الصحابة أصول الزهد ، وصارت تعاليمها في الكون تملأ قلوب المؤمنين .

إنه رسول الله ، رئيس جامعة الزهد الأولى، الذي عاش في موقع السيادة، وجلس على عرش الدنيا وأنكر على نفسه ما فيها.

إنه رسول الله ﷺ الذي ملك مفاتيح خزائن الدنيا، ومع هذا الملك لم يأكل ﷺ على خوان أبداً، فقد روى عن أنس بن مالك ؓ أنه قال : لم يأكل النبي ﷺ على خوان ^(٣) حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات ^(٤).

أى جمال هذا ؟ وأى زهد ذاك ؟

إنه زهد مَنْ علمه ربه حقيقة الدنيا، إنه أنصت لربه ووعى قوله : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، فأغمض عينيه عن الفانى، فما

(٢٠١) سبق تخريجها.

(٣) الخوان : هو ما يؤكل عليه كالمائدة وغيرها من سائر السفر . انظر : المعجم الوجيز، ص ٢١٥، طبعة خاصة بالتربية والتعليم.

(٤) رواه الإمام البخارى في صحيحه، كتاب : الرقاق، باب : فضل الفقر، ج ١١ ص ٣٢٩.

فتحهما إلا على الباقي.

وعلى هذا قامت الحقيقة الساطعة على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها؛ لتعبّر عن تلك العظمة التي تجلت وارتقت على دنو الدنيا، وترفعت عن فتاتها، تقول السيدة عائشة : لقد توفي رسول الله ﷺ وما في رقي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال عليّ، فكيلته ففني.

والرف يشبه الطاق في الحائط، وقيل : هو خشب يرتفع عن الأرض في البيت يوضع فيها ما يراد حفظه.

والمعنى : أن النبي ﷺ توفي على حالة من الزهد، فلم يكن على الرف في بيته شيء من حيوان، بل ما عليه إلا بعض من الشعير، فأكلت منه السيدة عائشة حتى فرغ^(١)، هذا هو زهد المعلم الأعظم ﷺ.

ولا زلنا نسأل أمنا عائشة عن رسول الله ﷺ: وماذا بعدُ يا أماء عن طعام رسول الله ؟

تقول السيدة عائشة - وكأنني بها تحجب وهي حبيبة رسول الله وصاحبته كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارًا إنها هو التمر والماء، إلا أن نؤتي باللحيم^(٢).

ثم نسأل أمنا عائشة عن فراش رسول الله ﷺ، وكأنني بها تحجب على مسمع من العالمين قائلة : كان فراش رسول الله ﷺ آدم وحشوه ليف^(٣).

إنها كلمات في حكاية عائشة تستدعي المدامع، وتوقد مجامر القلب، وتأخذ

(١) الإمام ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١١ ص ٣٣٨.
(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب : الرقاق، باب : كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، انظر : فتح الباري، ج ١١ ص ٣٤٠.

بالمواجد والمشاعر إلى عالم التجريد عن التلبس بصفات الدنيا، إنها دعوة إلى خلع لباس الدنيا وإلقائه بعيدًا بعيدًا، فيا لها من دنيا صغيرة، رسول الله ينام على فرش حشوه الليف الخشن!

وفي رواية أخرى من حديث ابن مسعود : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فقيل له : ألا نأتيك بشيء يقيك منه ؟ فقال : « مالي وللدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها »^(١).

في هذا الجو عاش سيد الزهاد وإمام جامعة الزهد، وهذا هو وصف حاله في بيته وفي طعامه ولباسه وفراشه وعفاه ، وترفعه عن متع الدنيا معه ومدى استعباده لها ، ليستعملها أداة لإطعام فقير أو لكسوة عارٍ أو لنصرة مظلوم، وقد أنتج هذا الحال الذي عاشه رسول الله ﷺ رجالاً زهاداً ساروا على درب معلمهم ﷺ ، فملكوا الدنيا وعمروها، وترفعوا عنها وهي بين أيديهم .

وفيما يلي نرد مواردهم لتتعلم من مؤانستهم ما تزكو به نفوسنا، وتنقى به قلوبنا، فتسلك جوارحنا دروب الطهر في غير دنس، وطرق الترقى في غير تدنى، فنرتفع باقتدائنا بأحوال هؤلاء الأنقياء إلى أعلى مقام .



(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود في سنته ، انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج ١١ ص ٣٥٣ بالشرح.

زهاد في معية الرسول ﷺ

إن دراسة حياة هؤلاء الزهاد الذين تربوا في جامعة رسول الله ﷺ إنما تمثل ضرورة ملحة ، حينما تكون حياتهم الزهدية ساحة لتدارك كثير من المعاني البناءة، لا سيما في هذا العصر الذى هوى في بحر المادية المطلقة التى زجت بالإنسان في عمق سحيق، بل أصبحت تكبله بما شاءت من قيود وحدود، وتشده إلى الأرض ليخلد إليها، فيتعامل مع كل شىء يتصل بروحه بنظرة ضيقة، وعقلية متحجرة، وروح ممسوخة وقاسية، حتى أصبح لتلك المادية الراضية للمعاني الروحية حراسا يسهرون لها الليالى ، ويوقدون الشموع ليرعوا أفكارها، فواجه هؤلاء الزهد بكل الأساليب المتلوية والممارسات الخاطئة، والمواقف المذبذبة المشينة في كثير من الأحيان .

ومن هنا، فإننا لن نسمح لدراستنا لحياة هؤلاء الزهاد أن تتخذ إلا طابع الاستفادة من التجربة الفاضلة، لتسمو بها أرواحنا، ونكون لنا ربيعاً نتخير من أزهاره، ونجنى من ثماره، ونلتذ بأفانين تغريد أطياره، ونكون نحن لها التجسيد الحى الذى يستوعبها ويمثلها .

وما أشد تلك الومضة المبهرة من شمس حقيقة الزهد ﷺ، والمشرقة على ساحات قلوب من حوله فدخلوا في معيته، وصنعت منهم أقماراً تطوف حول شمس تملأ الدنيا نوراً، يكشف عن حقيقتها المتوارية في ظلامها .

وأصبح هؤلاء الزهاد رؤاداً في ميدان الزهد، فمثلهم وهم في معية رسول

الله ﷺ كمثل شجرة طيبة أصلها رسول الله، هو ثابت، وفروعها هؤلاء الرواد الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضات الله تعالى، فبلغوا عنان السماء، وعلموا الدنيا كيف تزهد عن نفسها. وكشفوا لها عن حقيقتها الواهية حتى حكمت على نفسها بنفسها .

ومن نجوم الهداية الزاهرة التي استنارت من منبع النور النبوي :

أولاً : سيدنا أبو بكر الصديق

إنه الصديق ، أول الطلاب في مدرسة رسول الله ﷺ ، تبع النبي ﷺ حتى تغذت روحه من روافد علمه، واكتسب قلبه بحلل الآخرة بعد أن خلع عن نفسه خرقة الدنيا البالية، فأشرق من حاله وفعاله بشائر النصر على الهوى، وعبرت كلماته عما يجيش في صدره من إعراض عن متع الدنيا، حتى ذاع في عالم الزهد صيته وملأ الدنيا، وقبل أن تأخذنا جذبة الوجد في وصفه دون انفلات عنها، لابد من تقديم موجز لتلك الشخصية جمة الفوائد، عذبة المورد، حسنة المنحى :

مولده ونشأته ﷺ :

ولد الصديق عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشي التيمي^(١) المكنى بأبي بكر سنة ٥٧٢ م بعد عام الفيل بثلاث سنوات تقريباً^(٢)، وقيل : بعد عام الفيل بستين وستة أشهر، وقيل : بستين وأشهر دون تحديد لعدد الشهور^(٣).

يجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ في مرة بن كعب بن لؤى. وكانت أمه تدعى بأم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة^(٤).

(١) الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤ ص ١٤٨، طبعة دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٥ هـ - سنة ١٩٩٥ م.

(٢) أ. محمد رضا، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، ص ٩، طبعة دار الكتب العلمية، سنة ١٤٠٣ هـ - سنة ١٩٨٣ م.

(٣) أ. مجدى فتحى السيد، سيرة وحياة الصديق، ص ٢٩، طبعة دار الصحابة للتراث، طبعة أولى، سنة ١٤١٧ هـ - سنة ١٩٩٦ م.

(٤) أ. عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٣٤ بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية.

وقد نشأ سيدنا أبو بكر نشأة كريمة طيبة في حضن أبوين لها الكرامة والعز في قومهما، ما جعل أبا بكر ينشأ كريم النفس، عزيز المكانة في قومه^(١).

ألقابه ﷺ :

لقب سيدنا أبو بكر بألقاب عديدة، ولكل لقب علة صدر عنها، ترفع من شأنه ﷺ ، وتدعونا إلى التحلى بحليته والمجاهدة في الاتسام بسماته، ومن هذه الألقاب :

١ - الصَّدِّيق : وقد انبثق هذا اللقب مِنْ فِي رسول الله ﷺ بعد أن أثبتته سيدنا أبو بكر بالفعل، فهو الذى صدقه عندما كذبه جحافل الكفر وزعماء القهر، وهو الذى لازمه عندما تحلى عنه الناس، ومن مواضع إطلاق هذا اللقب من رسول الله ﷺ لما صعد النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان جبل أحد فرجف بهم فقال: « اثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصدِّيق وشهيدان »^(٢) وهذا تأصيل لهذا اللقب .

٢ - العتيق : لقب أطلقه النبى ﷺ على أبى بكر يحمل معنى العتق من النار والنجاة من عذابها، فقد قال ﷺ « أنت عتيق الله من النار »^(٣)، وفي رواية أخرى قال له : « أبشِّر ، فأنت عتيق الله من النار »^(٤).

(١) د . يسرى محمد هانى ، تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، ص ٣٠، طبعة معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، طبعة أولى، سنة ١٤١٨ هـ.

(٢) رواه الإمام البخارى في صحيحه، كتاب : فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب : فضل أبى بكر، ج ٥ ص ١١.

(٣) رواه ابن حبان، انظر : الشيخ علاء الدين على بن بلبان الفارسى، الإحسان في صحيح ابن حبان، وهو صحيح الإسناد، ج ١٥ ص ٢٨٠، طبعة دار الرسالة، بيروت، طبعة أولى، سنة ١٤١٥ هـ - سنة ١٩٩١ م.

(٤) رواه الترمذى، انظر : الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، تحفة الأحوذى بشرح الترمذى، حديث رقم ٣٦٧٩، دار الاتحاد العربى، طبعة ثانية، سنة ١٣٨٥ هـ - سنة ١٩٦٥ م.

٣ - الأَوَاهُ : لكثرة تأوّه أبى بكر وبكائه من خشية الله، واعتصار قلبه بمدامع الخوف والوجل، ومحاسبة النفس ودوام المراقبة، ورقة قلبه وشفافية ضميره، لقب أبو بكر بالأواه، قال الإمام إبراهيم النخعي عن هذا اللقب : « كان أبو بكر يسمى بالأواه لرأفته ورحمته »^(١) .

هذه أشهر الألقاب التى حملتها تلك الشخصية الفذة، وقد لقب الصديق بألقاب غيرها تدل على ما تحمله تلك الشخصية من عظيم الوفاء والقرب، والتقاء والحب .

ومن هذه الألقاب : الصاحب ؛ لصحبته رسول الله ﷺ فى الهجرة، بل وعلى طول حياته، وفى هذه الصحبة قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] فالمراد بالصاحب فى الآية هو : سيدنا أبو بكر بلا منازع^(٢) .

كما لقب ﷺ بالأتقى ؛ لرقه قلبه فى تعامله مع موقف المعذبين من المؤمنين بأيدى الكافرين، فلما رأى أبو بكر ذلك أعتقهم من ماله الخاص واشتراهم، فلقبه الله تعالى بهذا اللقب فى قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ [الليل] .

بيئته التى نشأ فيها :

وكانت الجاهلية سمة مجتمعه الذى عاش فيه، وقد تنزهت شخصية الصديق عن ترهات تلك الجاهلية، فمع أن الجزيرة العربية كانت غارقة فى

(١) الإمام المحدث ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٤ ص ١٤٨ .

(٢) الإمام ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ١٧، طبعة دار صادر، بيروت .

الظلمات، ومع ما ران عليها من عقم روحى ، إلا أن الصديق تجرد عن ثياب الجاهلية ، فنشأ طاهرًا إلى أن تطهر الطهارة الكبرى بإسلامه .

إنه نظر إلى القبائل من حوله فرآها تتعبد لآلهة نحتت من حجارة ، أو حفرت من خشب ، أو صنعت من نحاس، آلهة متعددة، وحرية جنسية مدمرة، وانحرافات أخلاقية لا ضابط لها، ومجتمع بأكمله ضاعت فيه معالم الكرامة بعد أن غابت فيه ملامحها في ظل الفساد الذى يملأ جنباتها، مجتمع بأكمله يندفع إلى الهاوية دون ماض مشرق يلح على المصلحين أن يعملوا على بعثه، مجتمع بأكمله تجرد عن أية آمال تثير حماس الراغبين فى تأليف القلوب المتنافرة لتحقيقها، مجتمع بأكمله تزجه الجاهلية فى الحريات المدمرة، والشهوات البهيمية المفسدة، وفوضى المعتقدات المتعددة .

نعم ، هذه هى ملامح بيئة الصديق، مجتمع جاهلى يحجبه الظلام الدامس عن رؤية الحق من غير هاد، ولكن مع هذا الظلام اتسمت شخصية (الصديق) بالعزلة عن ذلك كله ، فكان من صفاته :

١ - الوجاهة والشرف :

فمع ما اتصف به المجتمع الجاهلى من همجية، حيث كان أهله شدادًا غلاظ الأكباد، إلا أن الصديق لم ينضم إلى تلك الهمجية ، ولكنه انسلخ عنها، وانضم إلى وجهاء القوم وأشرفهم ورؤوسهم، فقد تميز فى المجتمع الجاهلى عشرة رهط فى عشرة بطون بنزاهة العيش، وهم الذين يتهى إليهم الشرف قبل ظهور الإسلام.

فالعباس بن عبد المطلب ، من بنى هاشم ، كان يسقى الحجيج في الجاهلية وبقى له ذلك في الإسلام .

وأبو سفيان بن حرب ، من بنى أمية ، كان عنده العقاب (راية قريش) ، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه .

والخارث بن عامر من بنى نوفل ، كانت إليه الرفادة ، وهي ما تخرجه قريش من أموالها ، وترفد به منقطع السبيل .

وعثمان بن طلحة بن زمعة بن الأسود ، من بنى أسد ، كانت إليه المشورة ، فلا يُجمع على أمر حتى يعرضوه عليه ، فإن وافق ولأهم عليه ، وإلا تخير وكانوا له أعوانا .

وأبو بكر الصديق من بنى تيم ، كان إليه الأشناق وهي السديات والمغارم ، فكان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه ، وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .

وخالد بن الوليد ، من بنى مخزوم ، كانت إليه القبة والأعنة ، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب .

وعمر بن الخطاب ، من بنى عدى ، كانت إليه السفارة في الجاهلية .

وصفوان بن أمية ، من بنى جمح ، كانت إليه الأزلام .

والخارث بن قيس من ، بنى سهم ، كانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم^(١) .

هكذا كان أبو بكر في مجتمع الجاهلية باذخ الشرف ، عالي الذروة ، له جاه صاعد ، وشرف باسق .

(١) أ . رفيق العظم ، أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ، ج ١ ص ١٢ ، طبعة دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، طبعة سادسة ، سنة ١٤٠٣ هـ - سنة ١٩٨٣ م .

٢ - لم يذق طعام الخمر في الجاهلية :

فقد تصاعدت نفس أبى بكر عن شهوة المزاج، وظهرت قريحته منذ الجاهلية، فلم يذق للخمر طعاماً، فكان عَزُوف النفس عنها، إنه حرمها على نفسه، تقول السيدة عائشة عن ذلك : حرم أبو بكر الخمر على نفسه، فلم يشربها في جاهلية ولا في إسلام^(١).

إنه كان من أعف الناس في الجاهلية، وقد سئل عن حاله مع الخمر في الجاهلية، فأجاب في طهر ونزاهة قائلاً : أعود بالله، فقليل : ولم ؟ قال : كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، ومن شرب الخمر ضيع عرضه ومروءته^(٢).
إن الإسلام قد انطبع في قلب أبى بكر، حتى إذا دعاه النبي ﷺ إليه صدّق عن يقين .

٣ - ما سجد جبينه لغير الله تعالى :

ترهد الصديق عن السجود لصنم أو وثن في الجاهلية في وقت رانت فيه على قلوب أهله صفة الجهل والخرافة، وخبثت فيها الاستنارة الدينية فتعصبوا لأهتهم، وما كانوا يعبدون، سواء كانت تباع في الأسواق، أو تصنعها الأيدي في البيوت، ومع تراحم الآلهة ترفع الصديق عن هذه الدنية فلم يسجد لآلهة آبائه، وقد حكى ذلك عن نفسه، فبينما يتحلق الصحابة الأقمار حول شمسهم ومصدر نورهم ﷺ إذا بالصديق يقول:

ما سجدت لصنم قط، وذلك أنى لما ناهزت الحلم أخذنى أبو قحافة بيدي فانطلق بى إلى مخدع فيه أصنام، فقال لى أبى : هذه آهتك الشَّمُّ العوالى، وتركنى وانصرف، فدنوت من صنم وقلت - سائلاً لإياه : إنى جائع فأطعمنى، فلم يجبنى، فقلت : إنى عار فاكسنى، فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة، فخر لوجهه^(٣).

(١) أ. مجدى فتحى، سيرة وحياة الصديق، ص ٣٤، طبعة دار الصحابة.

(٢) الإمام جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، بتحقيق: أ. إبراهيم صالح، ص ٤٨، ٤٩، بتصرف،

طبعة دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة ١٤١٧هـ - سنة ١٩٩٧م.

(٣) الشيخ محمود المصرى، أصحاب الرسول، ج ١ ص ٥٨، بتصرف، طبعة مكتبة أبى حذيفة السلفى،

طبعة أولى، سنة ١٤٢٠هـ - سنة ١٩٩٩م.

وكان قلب الصديق الحى القوى فياض بالنور قبل الدم، يوزع الفراسة والنور على عروق الجسم وشرايينه، والعقل وموازينه، حتى أدرك خرافة الوثنية قبل أن يُسلم، فترك دعوة للعقول لتعى وتدرس دون سوق الدواب وترديد الببغاوات، فيتعلم الجاهل، ويتحمس الخامد، ويعود الضال، إن أبا بكر لم يقتنع بالسجود لهذه الأحجار، فلم يسجد إلا لله رب العالمين.

٤ - وقرت محبته فى القلوب، وغشيت جلالته المشاعر :

فقد قر الصديق فى قلوب الناس، وامتلات صدورهم من دفقات هيئته، وغشى المشاعر جلال مودته، وكما جاء فى سيرة ابن هشام من قول الإمام ابن إسحاق:

إن القوم كانوا يحبونه، ويألفونه، ويعترفون له بالفضل العظيم، والخلق الكريم، وكانوا يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته^(١).

٥ - فاق الأكفاء فى معرفة أخبار العرب وأنسابهم :

إنه أربى على الأكفاء فى معرفة الأصول والجذور ونهايات البطون والشعوب، يقول الإمام ابن حجر : كان - أبو بكر - أنسب قریش لقریش، وأعلم قریش بما فيها من خير وشر^(٢).

ومع معرفته بالأنساب شريفها وغير الشريف منها، لم يعب الأنساب - قط - ولم يذكر المثالب بخلاف غيره^(٣) فلم يهج أحد فى نسبه أبداً، وإن دل ذلك فإنما يدل على حسن تصرفه، ورفعة منطقته.

تلك أبرز صفات الصديق فى مجتمع الظلام، قبل أن يشرق فجر الإسلام،

(١) الإمام ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١ ص ٣٧١، دار إحياء التراث، طبعة ثانية، سنة ١٤١٧ هـ - سنة ١٩٩٧ م.

(٢) الإمام ابن حجر، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٤ ص ١٤٦.

(٣) ابن عساکر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج ٢ ص ١٨٣، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، طبعة ثالثة، سنة ١٤٠٧ هـ - سنة ١٩٨٧ م.

وكان نور الله كان يغشاه، وفيض الحكمة والرفعة والزهد يملأ عليه طريق الحياة .

رأس ماله وغناه :

كان الصديق من رؤوس القوم في الغنى والكسب، وتنقل بين الأقطار والأمصار، ومسح البلاد بتجاراته، فدخل بصرى من أرض الشام، وارتحل بين البلدان، وبلغ رأس ماله أربعين ألف، وكان ينفق من ماله بسخاء^(١)، فتميز في مجتمعه عن الأقران، وترفع عن الأشباه فأصبح منقطع النظر، وما هذا السخاء إلا تعبير عن أن زهده مستقر في قلبه، ولم يزاحه حب الدنيا منذ الجاهلية .

إسلامه ﷺ :

كان إيمان الصديق وإسلامه بعد بحث طويل يتعقب خطأ الفطرة إلى أن وجد طلبته وأسلم ، وقد أجمع الصحابة على أن الصديق أول من أسلم، وقال ابن عباس وحسان بن ثابت وأسماء بنت أبي بكر وإبراهيم النخعي :

أول من أسلم أبو بكر^(٢)، وليس ذلك فقط، بل هو أول من صلى على حد قول سيدنا عبد الله بن عباس^(٣)، ولما أسلم آزر النبي في نصر دين الله تعالى بنفسه وماله^(٤)، وقد أنشد سيدنا حسان في ذلك مادحاً :

إذا ذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك أبابكر بسم الله

(١) أ . محمد رضا، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، ص ٩، وأ . علي الطنطاوي، أبو بكر الصديق، ص ٦٦، طبعة دار المنارة بالسعودية، طبعة ثالثة، سنة ١٤٠٦ هـ - سنة ١٩٨٦ م.

(٢، ٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٧٢، طبعة دار ابن خلدون، بدون تاريخ.

(٤) أ . محمد رضا، أبو بكر الصديق، ص ٩.

خير البرية أتقاها وأعد لها إلا النبي وأوفاهما بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس حقاً صدق الرسلا^(١)

الصدِّيق في رواق الزاهدين :

تجاوبت المحافل بصدى ذكر زهد أبى بكر، وجاب يريد ذكره
الآفاق، ودوى موقفه من الدنيا في أركان رواق الزاهدين، حتى عُرف بالأسماع
قبل الأبصار، وأومات إليه الأصابع، وامتدت نحوه العناق، وكأن تصرفاته
الزاهدة، ومدامعه المتدفقة، قد كشفت سر زهده الذي زهد عن كشفه .

زهد حتى الموت :

ما إن استشعر الصديق إشراق نور الإسلام في قلبه، إلا وتنكشف الحجب
عن عين ذاته، وتتألاً في فؤاده حقيقة الدنيا بشهواتها ورئاستها وأموالها،
فيعزف - عنها فأصبح الزهد عن الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، وهو - بطبعه
وقبل إسلامه - كثرت تساؤلاته عن الدنيا بينه وبين عقله، إلى أن جاء الإسلام
وأجاب عن هذه التساؤلات، فأمسك بالعزوف عنها، والانصراف عن
مطالبها، وبدأت قصة الزهد الحقيقية تترى في نفسية الصديق كما يربى أحدنا
فلوّه.

ونستطيع أن ندرج مع الصديق في حكايته مع الزهد الحقيقي في هذه
النقاط :

١ - إسلام وزهد :

ذاق الصديق لذة الأنس بالله تعالى، وهبت عليه نسائم اللطاف، فلمعت
في قلبه سعادة غامرة وكأنها البرق الخاطف، سعادة راحت تمحو عن نفسه آثار

(١) الإمام أبو الفرج بن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٧٢، وديوان حسان بن ثابت، تحقيق : أ . وليد
عرفات، ج ١ ص ١٧.

الدنيا وصفاتها المذمومة ، وتقطع كل العلائق المتصلة بالجاهلية.

وعرف أبو بكر جوهر الحقيقة، ولمس بيديه حقيقة الدنيا، ووضع قدميه على الصراط المستقيم، فنقل سير حياته من حب المال ورفاهية الجاهلية إلى الزهد عن هذه الرفاهية، والزهد عن المال وتسخيره في خدمة الإسلام، وذلك قمة الزهد، فإسلام أبي بكر نفسه زهد.

فهذا أبو بكر الذى كان يُعد من وجهاء القوم وأصحاب الرأى ، يقوم فى الناس خطيباً، ورسول الله جالس ، والدعوة فى مهدها الأول، وفى سريتها، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون عليه وعلى المسلمين، فضربوه فى نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم فأجلت المشركين عن أبى بكر ﷺ، وحملوه فى ثوب حتى أدخلوه داره، ولا يشكون فى موته^(١).

وفى تلك الحادثة شاهد على زهد الصديق عن مكانته التى كان فيها فى الجاهلية، وطمعه فى رضوان الله ورسوله مهما كلف الأمر .

٢ - الصديق الزاهد لا يأبه بالمال لتحرير الرقيق :

راح سادة قريش من المشركين يعذبون الرقيق الذين أسلموا، حتى كاد الرعب أن يقضى على النفوس من شدة هول العذاب، وإذا بخفقات قلب

(١) أبو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٠، طبعة دار الريان، طبعة أولى، سنة ١٤٠٨ هـ - سنة ١٩٨٨ م.

الصديق تشتد، حتى أصبح لا يأبه بهال في سبيل تحرير هؤلاء الرقيق، وما إن همّ الصديق على ذلك إلا ويروح الفزع الذي ران على الوجوه وتسكن الأوصال المرتجفة.

وكان منهم سيدنا بلال رضي الله عنه، فقد تعرض لعذاب عظيم، ولم يكن لبلال ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، فراح سيده أمية بن خلف ليهده تارة ويغريه أطواراً، فما وجد عند بلال غير العزيمة، وعدم الاستعداد للعودة إلى الورا، إلى الكفر والجاهلية والضلال، فحنق عليه أمية وقرر أن يعذبه عذاباً شديداً، فأخرجه إلى شمس الظهر في الصحراء، بعد أن منع عنه الطعام والشراب يوماً وليلة، ثم ألقاه على ظهره فوق الرمال المحرقة الملتهبة، ثم أمر غلمانَه فحملوا صخرة عظيمة وضعوها فوق صدره وهو مقيد اليدين، وبلال صابر يقول : أحد أحد^(١)، فقصد الصديق إلى أمية ، فاشتره بسبع أوق أو أربعين أوقية ذهباً^(٢).

إنه عين الزهد عن المال الذي لا يمثل شيئاً في تصور أبي بكر ، وليس بلال فقط، لا ...

إنه اشترى عامر بن فهيرة شهيد بئر معونة، وأم عميس ، وزنيرة التي ذهب بصرها عندما اشتراها وأعتقها، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت : كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان فرد الله

(١) أ. محمود علي بغدادى، عتيق العتقاء الإمام أبو بكر الصديق، ص ٣٩ بتصرف، طبعة دار الندوة الجديدة، بيروت، طبعة أولى، سنة ١٤١٤ هـ - سنة ١٩٩٤ م.

(٢) الغضبان، التربية القيادية، ج ١ ص ١٤٠، دار الوفاء، طبعة أولى، سنة ١٤١٨ هـ - سنة ١٩٩٨ م.

بصرها^(١)، وأعتق النهدية وبنتها وكانت لامرأة من بنى عبد الدار^(٢)، ومر الصديق بجارية بنى مؤمل - حى من بنى عدى بن كعب - وكانت مسلمة أيضًا، وعمر بن الخطاب يعذبها لترك الإسلام، وهو - يومئذ مشركًا - يضربها، فابتاعها الصديق وأعتقها^(٣).

إنه الزهد قد تربع في أعماق نفس الصديق، وقر في سويداء قلبه، واستولى عليه بالكلية .

٣- زهد بلا حدود :

في غزوة تبوك تجلّى زهد أبى بكر على رؤوس الأشهاد، فما إن تراحمت سيوف المشركين وخرجت من غمدها، واستلت سهام الكفر من جعبها، وراححت نار العداوة تأكل صدور العدو، ويستشعر لها لسعًا أليماً، إلا ويهتف النبي لأصحابه بإعداد العدة والعتاد، وتجهيز الجيش، فعداد المشركين كبير، فجاد كل صحابى بما يسمح به حاله، فهذا عمر يتصدق بنصف ماله، وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وأترك الرواية لسيدنا عمر، ولتنصت لقوله المواجه، يقول سيدنا عمر :

أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك ما لا عنده، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قلت : أبقيت لهم مثله، قال : وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ »، قال : أبقيت لهم الله ورسوله، قلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً^(٤).

(١- ٣) السيرة النبوية، لابن هشام، ج ١ ص ٣٩٣ باختصار .

(٤) سنن أبى داود، بتحقيق وتعليق : عزت الدعاس، كتاب : الزكاة، ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٣، رقم ١٦٧٨، سنة ١٣٩١ هـ سوريا، والحديث حسنه الإمام الألبانى.

فرغم المنافسة العمرية للصديق ، ورغم تعمدها، كان السبق لأبى بكر. إن المال لم يجد سبيلاً لقلب أبى بكر وهذا عين الزهد .

٤ - خلافة وزهد :

ما إن افتقد النسيم أنفاس الحبيب ﷺ بموته، إلا وماج في المجتمع شيء من الانفلات، فركب المؤمنون يحتاج إلى قائد، فهم القوم إلى مبايعة الصديق، فتوجس الصديق خيفة من الدنيا الزاحفة إليه كلما فرّ منها وأبى ذلك وزهد عنه .

وقد ظهر زهده ﷺ متجلياً في خطبته التي قارع بها عنان السماء، وملك بها أعتة القلوب وانساق الأئمة إليها، إنه خطب قائلاً والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغباً، ولا سألتها الله ﷻ في سر وعلانية، ولكنني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكنني قلدت أمراً عظيماً ما لي به من طاقه ولا يد إلا بتقوية الله ﷻ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكانى^(١) .

إن الصديق ظل يستوحش الدنيا وزهرتها حتى أصبح مضرباً للمثل على مر التاريخ، ولا يزال يعترى الصديق شعور دقيق بالرغبة عن الدنيا لا فيها، فهذا هو يقول عند توليه الخلافة في ذوق رفيع وحس مرهف يعبر عن الزهد في أسمى معانيه :

أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

(١) انظر : البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٢٣ / ٣٢١، ورواه الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيابورى الحاكم : في المستدرك على الصحيحين، ج ٣ ص ٦٦، وقال عنه : حديث حسن ووافقه الإمام الذهبي، طبعة دار الكتب العلمية، طبعة أولى، سنة ١٤١١ هـ - سنة ١٩٩٠ م.

خَشِيعُونَ ﴿١﴾ [الأنبياء] اعلّموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه على أنفسكم، وأخذ على ذلك موثيقكم ، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقي ... إلخ «^(١).

لقد كشف الصديق بزهده - مع ملكه الشامخ وهو رئيس دولة المسلمين حينها - عن بالغ إخلاصه ونفاسة معدنه، وصدق إيمانه، إنه زهد في كل شيء .

زهد في الطعام والملبس :

حقًا إذا سلك الصديق فجًا سلكت الدنيا فجًا غيره، فها هي شهوات النفس تتوارى بل تغيب عن قلب أبى بكر، قال زيد بن أرقم :

كنا مع أبى بكر رضي الله عنه فاستسقى، فأتى بماء وعسل ، فلما وضعه على يده بكى وانتحب ، حتى ظننا أن به شيئًا ولا نسأله عن شيء، فلما فرغ قلنا : يا خليفة رسول الله ﷺ ، ما حملك على هذا البكاء ؟

قال : بينما أنا مع رسول الله ﷺ ، إذ رأيته يدفع عن نفسه شيئًا ولا أرى شيئًا، فقلت : يا رسول الله ، ما الذى أراك تدفع ولا أرى شيئًا ؟ قال : «الدنيا تطوّلت لى ، فقلت : إليك عني، فقالت : أما إنك لست بمدركى» ، قال أبو بكر : فشقّ علىّ وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله ﷺ ولحققتنى الدنيا^(٢).

إن الصديق بتلك القولة ليأخذ بالألباب نحو اقتدائه برسول الله ﷺ وتعلقه به، ولم لا ... وهو الذى آمن به وصدقه ، فسار يمشى أمامه ومعه وخلفه ليدفع عنه ، ويوقظه إذا نام، إنها مصاحبة تامة صنعت من الصديق رائدًا في عالم الزهاد.

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨١.

(٢) رواه ابن حبان، وقال : رجاله ثقات إلا عبد الواحد بن زيد الزاهد . انظر : الترغيب والترهيب، للمنذرى، ج ٥ ص ١٦٨ ، وحياة الصحابة، الإمام محمد بن يوسف الكاندهلوى، ج ٢ ص ٤٣٦ ، طبعة دار الريان، طبعة أولى، سنة ١٤٠٦ هـ - سنة ١٩٨٧ م.

وعن رافع بن أبى رافع الطائى، قال : رافقت أبا بكر فى غزوة ذات السلاسل وعليه كساء له فدىكى، يخله عليه إذا ركب، ونلبسه أنا وهو إذا نزلنا^(١).

إن الصديق لم يتخذ زينة الملوك ولا لباسهم وحللهم، فقد ارتوى من شرب النبى ﷺ حتى استوى عوده، وألقى بمسامعه وفتح قلبه له حتى بسط الزهد على قلبه ببساطه وتربع على عرشه، فخرج من الدنيا عن ثوبين لم يمتلك غيرهما وهو رئيس دولته.

روى الإمام أحمد - فى مسنده - أن الصديق قال عند احتضاره : انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما، ثم كفنوني فيهما، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت^(٢).

وكانه رضى أن يكفن فى القديم الذى استهلكته الأيام ولم يرض لأحد من رعيته أن يلبس سوى الجديد .

زهد الخليفة وحياة الملوك :

إن الرفاهية الحقيقية فى حياة الزهاد لا تعنى البزخ والشرء والصولجان، لا ... إنها تنطلق من معنى الزهد، والصديق ترفه فى الدنيا بالزهد عنها وبملكيتها لها دون أن تملكه، إنه عبّر عن ذلك بما أبدته بصيرته مما تكنه من كنوز زاخرة فجرت فى منطقته من سبائك الذهب ما يعبر عن رجاحة عقله، ونقاء قلبه الممتلىء بأنوار اليقين .

روى الإمام أحمد فى الزهد عن عروة رضي الله عنه : أن أبا بكر لما استُخلف ألقى كل

(١) رواه الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، كتاب : الزهد، فى زهد أبى بكر، ص ١١٢، مكتبة الإيوان.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٣.

درهم له ودينار في بيت مال المسلمين، وقال : كنت أتجر فيه (أى : المال) وألتمس به، فلما وليتهم (أى : المسلمين) شغلوني عن التجارة والطلب^(١).

إن خليفة المسلمين وضع في بيت المال كل ماله ولم يترك شيئاً، وخرج يغدو إلى السوق ليتجر بأثواب وضعها على رقبتة، فلقية عمر وأبو عبيدة فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق، قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ قالا له : انطلق حتى نفرض لك شيئاً، فانطلق معها ففرضوا له كل يوم شطر شاة وماكسوه في الرأس والبطن^(٢).

أى : لم يعطوه من الرأس والبطن.

هذا هو حال الخليفة الزاهد في مملكة الحكم ، إن الإمرة لم تزعزع فيه نظرتة للدنيا لحظة واحدة، بل كان يزدداد على مر الأيام زهداً عنها، وتألقا بدونها .

إن وفداً من زعماء العرب وملوك اليمن قدم على الصديق ، وعليهم الحلل وبرد الوشى المثقل بالذهب والتيجان والخبرة، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك، وما هو عليه من الوقار والهيبة، ذهبوا مذهبه، ونزعوا ما كان عليهم^(٣).

إنه كان يحذرهم في خطبه من الميل إلى الدنيا والأخذ بأسباب الرفاهية، وينصحهم ألا يتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج فينعموا، وتعتاد أجسامهم على كل ما هو لين، وتؤدي بهم إلى رخاوة الأجساد وصراوتها،

(١) الإمام محمد الكاندهلوى، حياة الصحابة، ج ٢ ص ٤٣٧.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها، والإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٧٩.

(٣) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٩٢. انظر : د. مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، دراسة في الحياة الروحية الخالصة في القرون الأولى، ص ٣١، طبعة دار الدعوة.

فيتألموا من الاضطجاع على الصوف^(١).

إن الصديق قد أطلق بدروسه للملوك عنان أرواحهم لتسبق نزواتهم فاتجهت رغباتهم إلى غايات أخروية، وسيطرت على ملكهم نزعة إيمانهم، ذاقوا بها شراب حقيقة الملك .

ولا يزال رائد الزهد يعلم الملوك كيفية العيش مع الصولجان، إنه راح يحلب لجواري الحى أغنامهن بعزيمة صادقة، وهو من هو ؟ إنه في موقع سيادة العرب وقيادة الجيوش التى ذهبت لتقلع من الأرض الجبروت الفارسي، والعظمة الرومانية، دون أن يمنعه ذلك من حلب أغنام الحى.

فتلك جارية من الحى تنظر إلى الصديق بعد البيعة بالخلافة وتقول : الآن لا يحلب لنا منائح (أغنام) دارنا، فسمعها الصديق، فقال : لعمري لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهن^(٢).

إنه زهد عن موقع الخلافة وإن جلس على عرشها، فكم بكى وصاح في وجه الدنيا، وأمر الناس بالنياح في دار الفناء رجاء السعادة في دار البقاء، فهو القائل : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا^(٣).

صراخ ونحيب، وسهر ووجل، وقلق من المصير وصياح في النفس كالنذير، نعم ... كل ذلك من الخليفة الزاهد، إنه تمنى أن لم يكن في تلك الدنيا،

(١) الإمام الطبرى، تاريخ الطبرى، طبعة الحسينية، ج ٣ ص ٥٣، والمرجع السابق، ص ٣١.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ١٨٦، وله شواهد، فإسناده حسن لغيره.

(٣) الإمام أحمد، كتاب : الزهد، زهد أبى بكر، ص ١٠٨.

فقال : وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن^(١)، قال : والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد^(٢)، وقال - والنحيب يملؤه : وددت أنى خضرة يأكلنى الدواب^(٣).

إنها كلمات ضجت بها الدنيا وجنحت إلى السلم، فلم ترغب فى الصديق وقد رغبت عنها بكل ما وسعه، يقول أبو سفيان عن الخليفة الزاهد : إن الدنيا لم ترد أبا بكر ولم يردها وأرادت ابن الخطاب ولم يردها^(٤).

إنه زاهد مطلق لا يحب إلا الله ، ولا يريد إلا وجهه، ترك حظ نفسه، وزالت عنه كل رغبة فى جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو سلطان، ولم تبق لديه إلا رغبة واحدة : أن يلقى حبه فى الآخرة وهو عنه راض، فشمّر فى سبيل ذلك قاطعاً علاقته بالماديات فى سبيل غاية روحية أسمى تجذبه إلى ملكوت السماء، ونبت الشهوة ، فاختر جوع الدنيا على شبعها، وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها، فصار يرى بنور الله، ويفكر بهدى الله الذى بات يحسه فى عين ذاته، وأصبحت كل آماله ومنتهاى أمانيه أن يلقى عن عاتقه أثقال الشهوة، لينال رضا الله ورسوله ، فيخرج من الدنيا لا يملك إلا الرضا .

الصديق يلقى ربه زاهداً^(٥):

عاش الصديق حياته زاهداً، حتى فتح الله عين يقظته، وأشهده خفايا سريره، وأدرك أن حقيقة وجوده فى تلك الروح اللطيفة الصافية المودعة فى

(١-٣) الإمام أحمد، كتاب : الزهد، زهد أبى بكر، ص ١٠٨ .

(٤) رواه الإمام أحمد فى كتاب : الزهد، ص ١١٣ .

(٥) د . محمود أبو الفتح السيد، أوائل الزهاد، ص ٤٧، دار الشرق للطباعة.

هذا الجسم أو القلب الكثيف ، فعلم أن الروحية هي الحق، وأن مادية جسده الفانى هي الباطل فعمل للحق وقذف به في وجه الباطل فأدحضه، وها هو ذا قد حان وقت الرحيل، وقد سجد الصديق على فراش المرض الأخير، وندع المجال لأمتنا عائشة لتحكى لنا ما كان من زهد الصديق عند لقاء ربه، تقول السيدة عائشة :

أول ما بدئ مرض أبى بكر أنه اغتسل، وكان يوماً بارداً، فحُم خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه^(١). ولما اشتد به المرض قيل له : ألا ندعوك الطبيب ؟ فقال : قد رآنى، فقال : إنى فعال لما أريد^(٢).

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال أبو بكر : انظروا ماذا زاد في مالى منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة بعدى، فنظرنا فإذا عبد نوبى كان يحمل صبياناه، وإذا ناضح^(٣) كان يسقى بستاناً له، فبعثنا بهما إلى عمر، فبكى وقال : رحمة الله على أبى بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً^(٤).

ولازالت العبرات تحكيها لنا السيدة أم المؤمنين عائشة عن زهد أبيها عند لقاء ربه، قالت :

قال أبو بكر : أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً،

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨١.

(٢) د . محمد صامل السلمى، ترتيب وتهذيب البداية والنهاية ، خلافة أبى بكر الصديق، دار الوطن، الرياض، طبعة أولى، سنة ١٤١٨ هـ - سنة ١٩٩٧ م.

(٣) الناضح : هو البعير الذى يستقى عليه.

(٤) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٢.

ولكننا قد أكلنا من جريش^(١) طعامهم في بطوننا، ولبسنا خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن، ففعلت.

فلما جاء الرسول إلى عمر بكى، حتى جعلت دموعه تسيل إلى الأرض وقال: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده^(٢).

إنه أتعب من بعده في ملاحقته على طريق الزهاد، فالصديق له قدم السبق في فطم النفس عن المألوفات، وقطع العلائق عنها حتى أمات من نفسه ما كان حيًا، وأحيا من قلبه ما كان ميتًا، حتى ثبت قدمه على صراط صاحب النعم، وأنزل ما سواه منزلة العدم.

فهذا عبد الرحمن بن عوف يدخل عليه وهو على فراش الموت، فيسلم عليه، فيقول له الخليفة الزاهد: رأيت الدنيا قد أقبلت، ولما تقبل وهي جائية، وستخذون ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألون ضجائع الصوف... والله لئن يقدم أحدكم فيضرب عنقه - في غير حد - خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا^(٣).

وبذلك ترك أبو بكر للمسلمين من قواعد السلوك أمثلة نادرة في معيشته

(١) الجريش - من الجريش: القشر، أو ما سقط من الشيء عند حكه أو طحته، والمراد هنا: قشر الحبوب المطحونة، المعجم الوجيز، ص ١٠١.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٣، ص ١٤٦ - ١٤٧، ورجاله ثقات.

(٣) الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ١ ص ٣٤، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

وهكذا ظل الصديق يُفنى ذاته عن الدنيا ، حتى ذهب صفاتها عنه ، وخلع على نفسه خلعة التقشف والورع ، حتى تخلق بأخلاق الله ، فإذا نظر فبأنواره ، وإذا نطق فبأذكاره ، وإذا تحرك فبأقداره ، وإذا بطش فباقتداره ، إنه ظل هكذا حتى لقي الله وهو عنه راضٍ .

وقد قال أهل السير : توفي أبو بكر ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمانى ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين ، وأوصى أن تغسله أسماء ، فغسلته ، وأن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر ، ونزل في حفرته ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله^(٢) .

رحمه الله ورضى عنه ، وحشرنا في زمرة ، وجمعنا وإياه في أعلى فراديس الجنان مع النبي المجتبى العدنان .

تلك قطفة عابرة من زهد الخليفة الورع أبى بكر ﷺ ، الذى سبق الكلمات فعجزت عن إدراك حقيقة صفاته الزهدية ، وكيفيه ﷺ أنه تفرد بمقام (الصديق) ، مما دفع الإمام ابن تيمية ليضعه في عداد السالكين لطريق الروح في الإسلام بقوله عنه : وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون^(٣) ، وقال : إن المشاهدات والمخاطبات رائدها الأول هو الرسول ﷺ لانفراده بالنبوة والرسالة ، ثم يأتى بعده أول الأولياء وهو أبو بكر^(٤) .

(١) د . مصطفى حلمي ، الزهاد الأوائل ، ص ٣٢ .

(٢) الإمام ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ص ٨٢ .

(٣) الإمام ابن تيمية ، الصوفية والفقراء ، ص ٢٦ .

(٤) الإمام ابن تيمية ، شرح العقيدة الأصفهانية ، ص ١٠٧ .

هذا هو الخليفة الزاهد في بريق معدنه، وصفاء تكوينه، ودقة تعامله مع نفسه، وما هذه الصفحات إلا قطرة من محيطه بقدر ما يملأ في عصفور من ماء محيط شاسع .



ثانياً : سيدنا عمر بن الخطاب

« الأمير الزاهد » :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى: وأمه حثمة بنت هاشم بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم^(١).

يجمع نسبه مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤى بن غالب، ويكنى أبا حفص^(٢).

ولد ﷺ بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة^(٣) سنة ٥٨٣ م.

لقبه النبي بالفاروق حيث كان إسلامه عزة للإسلام، وبه فرق بين الحق والباطل.

نشأ عمر ﷺ في مكة وفي رعاية والديه حتى أصبح شاباً قوياً، فعمل بالتجارة في الصيف وأحياناً كان يرعى المواشى لأبيه^(٤).

إسلامه ﷺ :

خرج الفاروق يوماً متوشحاً سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ، والغضب يجري منه مجرى الدم، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام، فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال :

(١) الإمام ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٣.

(٢) الإمام يوسف بن الحسن بن عبد الهادي الدمشقي الصالحى الحنبل، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ج ١ ص ١٣١، دار أضواء السلف، طبعة أولى، سنة ١٤٢٠ هـ - سنة ٢٠٠٠ م.

(٣) (٤، ٣) الإمام جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٣.

أريد هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله، فراوغه النحام محاولاً منعه.

فلما رأى أنه غير منته، قال : فإنى أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا وتركوك، وما أنت عليه من ضلالتك.

فلما سمع مقالته، قال : وأيهم ؟! قال : ختنك، وابن عمك، وأختك^(١).

فتوجه الفاروق إلى أخته وزوجها، وكان عندهم (خباب) وكان الصواعق تملأ سماء عينيه، والغضب يخيم عليه، فلما قرع الباب قالوا : من هذا ؟ قال : ابن الخطاب، وكانوا يقرؤون كتاباً فى أيديهم.

فلما سمعوا حس عمر قاموا مبادرين فاختبؤوا ونسوا الصحيفة على حالها، فلما دخل ورأته أخته عرفت الشر فى وجهه، فخبأت الصحيفة .

فقال عمر : ما هذه الهيمنة التى سمعتها عنكم ؟ وكانوا يقرؤون : (طه).

فخرج ختنه وفاطمة بنت الخطاب واقفة، فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا، قال : فلعلكما صبوتما.

فقال له ختنه : أرايت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطمأ شديداً، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فنفحها عمر نفحة بيده فدمى وجهها، فقالت وهى غضبى : أرايت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٣ .

فلما يش عمر قال : أعطوني هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ : ﴿ طه ﴾ [طه : ١] حتى انتهى إلى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ [طه : ١٤] فقال عمر : دلوني على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال : أبشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر وبن هشام » .

قال : ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، قال : وعلى الباب حمزة، وطلحة وناس من أصحاب رسول الله ﷺ .

فلما رأى حمزة وجل الناس من عمر، قال : نعم هذا عمر، فإن يرد الله بعمر خيراً سيسلم ويتبع النبى ﷺ، وإن يُرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً، قال : والنبى ﷺ داخل يوحى إليه .

قال : فقام رسول الله ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحائل السيف، فقال : « ما أنت متتهياً يا عمر حتى ينزل الله - يعنى بك - من الخزى والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب » ، فقال عمر : أشهد إنك لرسول الله : فأسلم وقال : اخرج يا رسول الله ^(١) .

فأسلم عمر ببركة دعاء رسول الله ﷺ، فوقر فى ضميره الإيمان بالله

(١) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٤٣، ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٨٤، وفضائل الصحابة، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل، ج ١ ص ٣٤٤ بتصرف، طبعة دار ابن الجوزى، طبعة ثانية، سنة ١٤٢٠هـ - سنة ١٩٩٩م .

والتصديق بما جاء به رسوله ﷺ، وسكنت البغضاء ولم يبق لها مكان في قلب عمر، وحلت السكينة في سويداء قلبه، ولم يخطر على بال أحد حينها أن عمر صنديد قريش سيكون بفضل الله تعالى من أتباع رسول الله ﷺ المقربين الذين وجدوا في قربهِ غذاءً للروح، ونبراساً للعلم الصادق والحكمة الغالية.

عمر الزاهد في قلب الإمارة :

تولى عمر الخلافة بعد الصديق بوصية منه وبيعة، وإجماع من الصحابة عليه أميراً للمؤمنين، فهم أمير المؤمنين عمر بخطب في الناس بإزار مرقع، قال الحسن : خطب عمر الناس وهو خليفة، وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة^(١)، وصاح في مملكة الخلافة صيحة مدوية متنازلاً عن حقه في ماله، وجعل نفسه على ماله كوصى لليتامى والمساكين، فقال :

ألا وإنني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولى اليتيم، إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف^(٢).

وكان قلب الأمير الزاهد يخفق رهبة بعد الإمارة، ولم يطق ثوبها المعلى، فراحت الخشية تمور بين جنبه حتى زهد عن حال الأمراء، وألقى بتاج الملك من فوق هامته، وإن يوماً لم يبدُ سكونه، وانقشع لباس ليله لِمَا طرح فيه السيدة حفصة بنت عمر على أبيها الأمير من رأى، قالت : يا أبت، يا أمير المؤمنين، لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك، فقد وسع الله ﷻ في الرزق، وأكثر من الخير ؟

فقال : إننى سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان يلقي رسول الله ﷺ

من شدة العيش، فما زال يذكرها حتى أبكاها، فقال لها : والله إن قلت ذلك ،
أما والله لئن استطعت لأشركنهما بمثل عيشهما الشديد (أى : النبى ﷺ
والصديق ﷺ) لعلى أدرك معهما عيشهما الرخى ^(١) .

وراح أمير المؤمنين يومًا يبكى على نفسه، وقد قطع علائقه بالدنيا،
وأشرقت عليه أنوار الحقيقة والمعرفة ، وأظهر ما يبطن من إيمان عميق، وقد
بدت في نبرات صوته هزة الوجل والزهد عن الدنيا .

إنها هزة كست منطقته حين قال : ليتنى كنت كبش أهلى يسمنونى ما بدا
لهم، حتى إذا كنت أسمن ما أكون، زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضى
شواء، وبعضى قديدًا، ثم أكلونى ، ولم أكن بشرًا ^(٢) .

إنه الفرار من فتن الدنيا مهما سالت أودية الحياة من عيون ثرائها، أو شامخ
جاهها، فرار من الهوى والشهوة والنزوة إلى ظل ظليل فى عالم الترقى
الروحانى حتى ترتاح روحه ﷻ فى جسده دون شقاء مادية، أو هيمنة إمارة.

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : كان عمر زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز
قد ثرد فى الزيت ، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس،
وغرفوا له طيبها، فأتى به فإذا قدر من سنام ومن كبدة، فقال : أنى هذا ؟

قالوا : يا أمير المؤمنين من الجزور التى نحرنها اليوم.

قال : بخ بخ ، بشس الوالى أنا إن أكلت أطيبها، وأطعمت الناس كراديسها،
ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام، فأتى بخبز وزيت، فجعل يكسر

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ١ ص ٤٨ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ١ ص ٥٢ .

بيده ، ويشرد ذلك الخبز ^(١) .

نعم ، رضى أمير المؤمنين بالخبز والزيت ، وترك الكبد والسنام ، فلم تشغله الإمارة عن روحه ؛ لأنه أدرك أنها شكل دنيوى إن تبعه ثققلت روحه بأوزار جسده ، وأصبح كهؤلاء المنشغلين بالدنيا حتى صاروا فيها مجرد أشياء ، آمالهم محدودة بالعالم الأرضى الذى يتنفسون فيه ، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تتلاشى ، ولذة لا تدوم ، فأوغلوا فى الحياة الحيوانية ، فانعدم انسجامهم مع إنسانية الإنسان .

إن الفاروق لم يأبه بإمارة ولا بسلطة ، بل كانت الإمارة فيه كالنذير ، والله دره حين قال :

لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة ، لظننت أن الله تعالى سائل عنها يوم القيامة ^(٢) .

إنها الخشية بعينها تتبدى فى قول عمر : لو نادى مناد من السماء : أيها الناس ، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً ، لحفت أن أكون هو ^(٣) .

عمر يتوقل معارج الزهاد :

كلما تلبس عمر بالإمارة ، كلما ازداد عمقاً فى درب الزاهدين ، وأغلق نوافذ قلبه عن علائق الدنيا ، وانفتحت عين بصيرته على ساحة نفسه ، فاستطاع أن يسبر أغوارها ، فارتقى فوق غاياتها ، فهام فى معارج الزهاد ، واستكان لروحه ، واستجاب لندائها ، وأخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش حتى

(١) الإمام ابن الجوزى ، صفة الصفوة ، ج ١ ص ٨٧ .

(٢ ، ٣) أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ١ ص ٥٣ .

ساوى البائس الفقير الذى إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرmq ويدفع الجوع .

لم تشره نفسه إلى رقيق العيش ونعيم الحياة، ولم يهم بمكائرة الناس فى المال، ويرى مال المسلمين مرتعاً وبيلاً على مَن رعاه فقر على نفسه تقتيراً، حتى رأى بعض أصحاب رسول الله ﷺ ما يعانيه أمير المؤمنين من جهد العيش، فاجتمع نفر منهم فيهم عثمان : وعلى وطلحة والزبير، وقالوا : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه، فقال عثمان هلم فنعلم ما عنده من وراء وراء .

فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها بما اعتزموا عليه، وأوصوها ألا تخبر بهم عمر .

فلقيته حفصة وقالت له فى ذلك، فغضب وقال : مَن هؤلاء ؟ لأسوءهم، قالت : لا سبيل إلى علمهم، قال : أنت بينى وبينهم، ما أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ من الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع .

قال : فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : حرفاً من شعر فصبنا عليه وهو حار أسفل عكه لنا، فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها .

قال : فأى مبسط بسط عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين نريعه فى الصيف، فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه .

قال : فأبلغهم أن رسول الله ﷺ قد ر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية، وإنما مثلى ومثل صاحبي (النبى ﷺ وأبى بكر ﷺ) كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل، ثم أتبعه الآخر فسللك سبيله فأفضى إليه، ثم أتبعها الثالث (يقصد نفسه) فإن لزم طريقهما ورضى

بزادهما لحق بهما، وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما^(١).

هكذا تغلب سراج الروح على ظلمة الجسد في الفاروق الزاهد.

ومما ورد عنه في وصف الدنيا: أنه مرَّ على مزبلة فاحتبس عندها، فكأنه شق على أصحابه وتأذوا بها، فقال لهم: هذه دنياكم التي تحرصون عليها^(٢).

وإننا لنعثر على عديد من نماذج السلوك التي يتضح فيها عمر بن الخطاب الزاهد حقاً، وقد جذبت شخصيته انتباه المستشرق (ساخاو) فأطلق عليه اسم (صاحب العظمة ذو الثياب المرقعة)^(٣).

الأمير الزاهد يغير مفهوم الإمارة :

زحفت الإمارة إلى عمر تجر الدنيا في أذيالها . إنها صولجان وسلطان ومال وقصور وخدم، فزحف عمر يتصدى لها بقوى الرغبة عنها، بل والرغبة عن ظلالها التي حاولت أن تدخل قلبه، فهو راغب في الصفاء الذي لم تعكسه مطامع القياصرة، فلم يعد همّة زينة الدنيا بل صار يرى بعين بصيرته جمال الجمال، بعد أن أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه، وأصبح همه جوهر الحقيقة ووجه الله تعالى.

فعن طارق بن شهاب رضي الله عنه، قال : لما قدم عمر رضي الله عنه الشام، تلقاه الجنود، وعليه إزار وخُفان وعباءة، وهو أخذ برأس راحلته يخوض في الماء، فقالوا : يا أمير المؤمنين، يلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالتك هذه، فقال : إنا أعزنا

(١) عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ - سنة ١٩٧٩ م.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب : الزهد، زهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ص ١١٨.

(٣) د . مصطفى حلمي، الزهاد الأوائل، ص ٣٧١.

الله بالإسلام، فلن يُلتَمَس العز بغيره ^(١) .

إن عمر - بتلك العبارة - قد غير معنى الإمارة، وأسقط صلاحيتها، فالعزة الحقيقية لم تكن وليدة شيء صنعته الدنيا، لا إن العزة الحقيقية، والإمارة الحقيقية، هي التي صنعها الإسلام، فهو قلعة الإمارة، وهو التاج المعلى .

خرج عمر يوماً، وهو رئيس دولته حينها، إلى السوق ومعه الجارود، فإذا امرأة عجوز، فسلم عليها عمر، فردت عليه، وقالت : هيه يا عُمير، عهدت لك وأنت تُسمى عُميراً في سوق عكاظ تُصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سمعت عمر، ثم قليل سمعت : أمير المؤمنين. فاتق الله في الرعية، واعلم أنه مَنْ خاف الموت خشى الفوت .

فبكى عمر .

فقال الجارود : لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيتك، فأشار إليه عمر : أن دعها .

فلما فرغ، قال : أما تعرف من هذه ؟ قال : لا .

قال : هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها، فعمر أخرى أن يسمع كلامها، أشار إلى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة : ١] وهي خولة هذه ^(٢) .

فها هو عمر يتألق في سماء الانكسار والزهد والتواضع، فلم يخضع لإمرة الحكم ولا لهيمنة الخلافة والسلطان، بل زهد عن ذلك كله، وسمع لرعيته

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من العلماء المختصين، ج ٦، الزهد ص ٢٢٣٣، طبعة دار الوسيلة، المملكة العربية السعودية، طبعة ثالثة، سنة ١٤٢٥ هـ - سنة ٢٠٠٤ م .

(٢) الإمام ابن الجوزي، الشفاء، ص ٨٧، وانظر : موسوعة نضرة النعيم، ج ٥ ص ١٨٩٦ .

مرعيًا السمع والبصر والفؤاد.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في يدي لحماً معلقاً، فقال : ما هذا يا جابر ؟ قلت : اشتريت لحماً فاشتريته، فقال عمر : كلما اشتريت اشتريت ! أما تخاف هذه الآية : ﴿ أَذْهَبَتْ طَبِيبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] » ^(١) .

فقد حرص عمر على ادخار طيباته للآخرة، لذلك صاح وصرخ متمنياً على الله أن لم يكن، قال عبد الله بن عامر بن ربيعة : رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنه من الأرض، فقال : يا ليتني هذه التبنه، ليتني لم أكن شيئاً ، ليت أُمي لم تلدني، ليتني كنت نسياً منسياً ^(٢) .

إن الفاروق تمنى أن يكون تبنه ولم يكن عمر، وذلك قمة الزهد عن الدنيا، مما جعله يستشعر الغربة عنها وهو فيها، بل هي بين يديه يحملها على مضض، لذلك لم يطمع فيها، بل علمنا ألا نطمع فيها فقال : تَعْلَمَنَّ أَنَّ الطَّمْعَ فَقْرٌ، وَأَنَّ الْيَأْسَ غِنَى ^(٣) .

وبعد هذا الفهم العميق راح أمير المؤمنين يقلب وجهه في الدنيا، فإذا بالحكمة الفياضة تتفجر من ينابيع عيون ذاته، وإذا بفراصة غامرة تغمره، وإذا بنفث في روعه يفصح له عن حنية احتياجه من وسائل الدنيا الفانية، فذهب يخبرنا بذلك بقوله : ألا أخبركم بها أستحل من مال الله تعالى :

حُلَّتَانِ لَشَتَائِي وَقِيْظِي ^(٤) ، وما يسعني من الظهر ^(٥) لحجتي وعمرتي،

(١) الإمام ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب، ص ١٧٨، وموسوعة نضرة النعيم، ج ٥ ص ١٨٩٦ .

(٢) الإمام البغوي، شرح السنة، ج ١٤ ص ٣٧٣، والمرجع السابق، الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق، ج ١٠ ص ٤٨٥٣ .

(٤) أي : ثوب للشتاء وثوب للصيف .

(٥) الظهر : أما يركب من الدواب .

وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، فو الله ما أدري أيجل ذلك أم لا ؟ ^(١).

وانساب النصيح من أمير المؤمنين لولاته كاشفًا لهم عن حقيقة الدنيا، وكأن اليأس يعتصر من فؤاده وتجسده الكلمات، إنه اليأس عما في الدنيا، فالدنيا لا تعرف طريقًا إلى قلب أشرق بالنور، ومما كتبه لبعض عماله وولاته قوله :

حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به، لكيما تنتهي عما ينهي عنه، وتكون عند التذكرة والعظة من أولى النهي ^(٢).

إن نصيحة عمر لم تقف عند حد الولاة والعمال، لا ... إنها انطلقت إلى رعيته لئلا يشغلوا بلهو الدنيا عن إجماع أنفسهم عن الهوى، فهذا هو الأمير الزاهد يستوقف فضيل بن زيد الرقاشي عند حد نفسه ويقول :

لا يلهينك الناس عن ذات نفسك، فإن الأ... يخلص إليك دونهم، ولا تقطع النهار بكيت وكيت، فإنه محفوظ عليك ما قلته، ولم تر شيئًا أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثه لذنب قديم ^(٣).

وهكذا انصب طلب الفاروق متوجهًا لرضا الله، ولم يكن طلبًا لدنيا يصيبها، أو ملك يتربع على عرشه، إنه قدم لآخرته، وزهد عن دنياه.

(١) الإمام أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٢٣٩، طبعة دار الشعب.

(٢) ابن أبي الدنيا، محاسبة النفس والإزرار عنها، ص ٥٩، تحقيق : مصطفى بن علي بن عوض، بيروت، سنة ١٩٨٦ م، وإغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ص ٩٥، طبعة دار المعرفة، بيروت.

(٣) ابن أبي الدنيا، محاسبة النفس، ص ١٣٨.

ولم لا ... وهو القائل : لو تركت عنزاً جرباء إلى جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة ^(١) .

إن همَّ الرعية والانشغال بهم زاد الأمير زهداً، فها هو الأمير ينام على رداء مملوء بالحصى، خليفة المسلمين يزهد عن الحرير والديباج وينام على الأرض ووسادته رداء.

فقد ذكر الحافظ ابن الجوزي في مناقب عمر : بينما عمر رضي الله عنه نائم في المسجد، قد وضع رداءً مملوءاً حصى تحت رأسه، إذ بهاتف يهتف : يا عمراه ! يا عمراه ! فانتبه مذعوراً، فعدا إلى الصوت ، فإذا أعرابي ممسك بخطام بعير والناس حوله، فلما نظر إلى عمر، قال الناس : هذا أمير المؤمنين.

فقال عمر رضي الله عنه : من آذاك ؟ وظن أنه مظلوم، فأنشأ يقول، فذكر أبياتاً يشكو فيها الجذب، فوضع عمر رضي الله عنه يده على رأسه، ثم صاح : واعمره ! واعمره ! أتدرون ما يقول ؟ يذكر جذباً وإسناتاً ^(٢) ، وأن عمر يشيع ويروى، والمسلمون في جذب وأزل ^(٣) ، من ذا الذى يوصل إليهم من الميرة ^(٤) والتمر، وما يحتاجون إليه، فوجه رجلين من الأنصار، ومعهما إبل كثيرة عليها الميرة والتمر ^(٥).

أى صناعة تلك ؟ ! وأى زهد هذا ؟ ! إن الفاروق تربى في جامعة رسول الله ﷺ، فمع زهده وتجموعه ونومه على الحصا وثوبه مرقع يتهم نفسه بالشبع والرى، والله إن هذا لشيء عجاب يصيب بالذهول، ويضع المرء منا في مواقع المترفين، ونسأل الله السلامة .

(١) الإمام أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ١٧، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) إسناتاً : من أستوتوا فهم مستتون، أصابتهم سنة وقحظ وأجدبوا، انظر : لسان العرب لابن منظور، مادة (سنت)، ج ٢ ص ٣١٤، طبعة دار صادر، بيروت .

(٣) أزل : ضيق وشدة، انظر : المرجع السابق، ج ١ ص ٥٦ .

(٤) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان، وقيل : هى جلب الطعام، انظر : المرجع السابق، مادة (مير)، ج ٣ ص ٥٥٤ .

(٥) الإمام ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ص ٧٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، والطبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٣ ص ٣١٧، طبعة دار صادر، بيروت .

إن الأمير الزاهد لم يغفل قط عن التأمل في متع الدنيا والدهشة الأخاذة تملؤه، لا ... ولكنه بالإضافة إلى ذلك نظر نظرة فاحصة ازداد فيها تأمله في أمور الدنيا والآخرة، يقول ﷺ :

نظرت في هذا الأمر ، فجعلت إذا أردت الدنيا أضرت بالآخرة، وإذا أردت الآخرة أضرت بالدنيا^(١) .

إن الأمير - رئيس دولته - أبطأ يوماً على الناس في يوم جمعة فخرج، فلما صعد المنبر اعتذر إلى الناس فقال : إنما حبسني قميصي هذا لم يكن قميص غيره^(٢) .

هذا هو حال خليفة المسلمين عمر بن الخطاب. إن الأمر قد وصل به إلى أن يحمل القربة على كتفه^(٣) وهو أمير المؤمنين .

ولم يكن ذلك بسبب فقر أو فاقة، لا ، إنه وجد فاستغنى، وملك فزهد، ويشهد لذلك أبو سفيان حين قال: إن الدنيا أرادت ابن الخطاب ولم يردها^(٤) .

إنه الأمير الزاهد الذي حكى عنه سيدنا حذيفة حين أقبل عليه، فإذا بالناس بين أيديهم القصاع ، فدعاني عمر فأتيته، فدعا بخبز غليظ وزيت، قال : قلت له : أمنعتني أن أكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا، قال : إنى دعوتك على طعامي ، فأما هذا فطعام المسلمين^(٥) .

(١) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) انظر : ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٩٩ .

(٤) الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١١٣ .

(٥) الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١٢١ .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : أصاب الناس سنة غلا فيها السمن، وكان عمر يأكل الزيت فيقرقر بطنه، فيقول : قرقر ما شئت ، فوالله لا تأكل السمن حتى يأكله الناس، ثم قال : اكسر عني حرّة بالنار، فكنت أطبخه له فيأكله ^(١) .

إن أمير المؤمنين عمر قد تشيع بحال رسول الله ﷺ في الزهد، وأخذ يرن في قلبه ما رأى منه، فقال ﷺ : لا ينخل لي دقيق، رأيت رسول الله ﷺ يأكله غير منخول ^(٢) .

إنه من شدة تأثره بحال رسول الله ﷺ كتب لأبي موسى الأشعري كلامًا يعبر عن ذهنه الفاكه حتى ثبت كلامه في الدهر سرمدًا، فأرهف قلب أبي موسى فكثر العناق فيه، واشتد وجيب القلب في صدره، وانهمرت الدموع من عينه، إنه كتب إليه قائلاً :

إنك لم تنل عمر الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا ، وإياك ومذاق ^(٣) الأخلاق ودناءتها ^(٤) .

هكذا كانت حياة سيدنا عمر، مليئة بالزهد، ولا مكان للدنيا فيها، حتى قاده الزهد إلى طريق الله تعالى: وفجر في قلبه كنوزًا من اللذات الروحية، ولذة المعرفة ، ولذة الإيثار، ولذة الإنفاق، ولذة التقشف والورع، كل ذلك لوجه الله تعالى، وبذل كل بذل في سبيل إسعاد الرعية والتماس الكمال، إرضاءً لكمال الكمال .

وبعد هذا السعي الرصين، وبعد أن ارتفع سيدنا الزاهد عمر من عالم الأرض إلى ملكوت السماء، وبعد أن تصفى فؤاده وسعد بإشراق أنوار المعرفة،

(١) (٢، ١) المرجع السابق، نفس الصفحة .

(٢) مذاق الأخلاق : يعنى اختلاط محمودها بمذمومها، من قولهم : مذاق اللبن أو الشراب بالماء : إذا خلطه به فأكثر فيه الماء .

(٣) (٤) المرجع السابق، ص ١٢٣ .

وتذوق لذة الحياة الروحية، وأيقن أنها تفوق اللذات المادية، إذا بالحقيقة الخالدة تتلألأ، وإذا بوابل من الرحمة بعد العناء في الدنيا يتدلى من عند الله تعالى ليلف روح الأمير في لفافات الورود وحواصل الطيور لتسرح بين أغصان اللذة الحقيقية الباقية .

الأمير الزاهد في موكب الشهداء :

تعلقت عيون القوم دهشة بعد أن حلت فزعة أخذت بمجامع القلوب، وازدادت خفقاتها وقد زاغت الأبصار، وبقي الناس في ذهول للحظات بعيدة، ثم راحت صيحات الهلع تزلزل الإمارة كلها، وماج الناس بعضهم في بعض، وبكت الأرض على افتقادها وطأة عمر، وغردت السماء لاستقبالها روح عمر .

فها هو الأمير الزاهد كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : يُطعن في السحر، طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان مجوسياً^(١)، وذلك حين قيامه -سدا-، لما حذى عمرو بن ميمون بقوله : إني لقائم ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مرَّ بين الصفيين، قال : استووا، فإذا استووا تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحر ذلك في الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر، فسمعه يقول : قتلنى - أو أكلنى - الكلب ! حين طعنه، فطار العليج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه.

(١) أ. مجدى فتحى السيد، صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق عمر بن الخطاب، ص ٣٦٩، طبعة دار الصحابة، طبعة أولى، سنة ١٤١٧هـ - سنة ١٩٩٦م .

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف قدمه، فمن يلى عمر فقد رأى الذى رأى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، فلما انصرفوا، قال : يا بن عباس ، انظر من قتلنى، فجال ساعة، ثم جاء فقال : غلام المغيرة، قال : قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة - وكان العباس أكثرهم رقيقاً - فقال : إن شئت فعلت : قتلناهم، قال : كذبت - أى أخطأت - بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم، وحجوا حجكم :

فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه، وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول : لا بأس، وقائل يقول : أخاف عليه، فأتى بنيذ^(١) فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه، فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت.

فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وقال : يا عبد الله بن عمر، انظر إلى ما على من دين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال : إن وفى له مال آل عمر فأذه من أموالهم، وإلا فسل في بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسل في قريش، ولا تعدّهم إلى غيرهم، فأذ عنى هذا المال، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل : يقرأ عمر عليك السلام، ولا تقل : أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يبقى مع صاحبيه .

(١) المراد بالنيذ المذكور: ثمرة نبذت في الماء، أى : نعت فيه ، وكانوا يفعلون ذلك لاستعذاب الماء .

فقلت : كنت أريده لنفسى، ولأؤثرنه به اليوم على نفسى.

فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال : ارفعونى، فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين، أذنت ؟

قال : الحمد لله، ما كان من شىء أهم إلى من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملنى، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب، فإني أذن لى فأخلونى، وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين.

قال : فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر، قال : يستأذن عمر بن الخطاب، قالت عائشة : أدخلوه. فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه^(١).

وعن عثمان بن عفان، قال : أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه ورأسه فى حجر ابنه عبد الله، فقال له : ضع خدى بالأرض، قال : فهل فخذى والأرض إلا سواء ؟ قال : ضع خدى بالأرض لا أم لك، فى الثانية، أو الثالثة، وسمعتة يقول : ويلى ويل أُمى إن لم تغفر لى حتى فاضت نفسه^(٢)، وخرج من الدنيا نقى الثوب، بريئاً من العيب.

قال سعد بن أبى وقاص : طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة^(٣) سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم. قال

(١) رواه الإمام البخارى، كتاب : فضائل الصحابة، برقم ٣٧٠٠، طبعة دار الفكر، طبعة أولى، سنة ١٤١١هـ - سنة ١٩٩١م.

(٢) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٩٠.

(٣) تاريخ الطبرى، ج ٥ ص ١٢٨.

معاوية : كان عمر ابن ثلاث وستين، وقال قتادة : ابن إحدى وستين، وصلى عليه صهيب^(١)، وكانت خلافته ﷺ عشر سنين ونصفًا وأيامًا^(٢).

رحم الله أمير المؤمنين، فارس الزهد في ساحة الدنيا، وجامع معانى الورع في حاله ومقاله وصفاته، حتى تصببت أصول الحكمة من مزن فراسته القابعة في عين بصيرته، المتصلة بجذور قلبه، ولا عجب لقلب ملئ بحب الله ورسوله ﷺ دون مزاحمة سواهما أن يغيب صاحبه عن الدنيا وهو حاضر فيها، وأن يحضر فيها وإن غابت هي عنه .

فلم تعد له صلة بها وهو فيها راع، ولا لها فيه ثغر ولا عين، إذن فلا يسأل عن حال الأمير الزاهد من أين ؟

رضى الله عن الإمام الأمير، وحشرنا في زمرة، وأنسنا بصحبته يوم القيامة مع صاحبيه، رسول الله ﷺ والصديق ﷺ ... آمين .



(١، ٢) أبو القاسم الأصفهاني، سير السلف، ج ١ ص ١٦٠، طبعة دار الراية، الرياض، طبعة أولى، سنة ١٤٢٠هـ - سنة ١٩٩٩م .

ثالثا : ذو النورين عثمان بن عفان

كان من رؤوس الزهاد الأوائل أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان قرشيًا أمويًا يجتمع مع النبي في عبد مناف^(١).

ولد بالطائف بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح (سنة ٥٧٦ م)، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ^(٢).
إسلامه ومطلع زهده (رضى الله عنه وأرضاه) :

لما أهل الإسلام بنوره على مكة ، كان عثمان من السابقين إلى الاستضاءة بمشكاته، ولإسلام عثمان بن عفان قصة مازال يرويها الرواة :

ذلك أن أبا بكر دعاه إلى الإسلام فأسلم، ولما عرض أبو بكر عليه الإسلام قال له : ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدونها قومك، أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع ؟ فقال : بلى، والله إنها كذلك، قال أبو بكر : هذا (محمد بن عبد الله) قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه ؟ فقال : نعم .

وفي الحال مر رسول الله ﷺ ، فقال : «يا عثمان ، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه» قال : فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن

(١) (٢٠١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٤٠ .

أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت ابنته رقية، وكان يقال: أحسن زوجين رأهما إنسان : رُقية وعثمان، وكان زواج عثمان لرقية بعد النبوة لا قبلها .

وفي إسلامه ﷺ تقول خالته سُعدى :

هدى الله عثمان الصفىّ بقوله فأرشدته والله يهْدِي إلى الحق
فبايع بالرأى السديد محمدًا وكان ابن أروى لا يصد عن الحق
وأنكحه المبعوث إحدى بناته فكان كبدر مازج الشمس في الأفق
فداؤك يا بن الهاشميين مهجتي فأنت أمين الله أرسلت في الخلق

ولما أسلم عثمان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية " فأوثقه رباطًا، وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ! والله لا أخليك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال : والله لا أدعه أبدًا، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه ^(١) .

وهذا الموقف يترجم عن زهد عثمان بمجرد إسلامه، فقد تخلّى عن ديانة آبائه، ورغب عنها بما تحمله من إباحة البذخ والرقص والخمر والسرف والترف، ووقفت نبتة الإيمان الراسخ في وجه العواصف من قبل أن يشتد عودها .

وبعد الهجرة، خرج النبی ﷺ إلى بدر ، وخلف عثمان على ابنته (رقية) يمرضها، وضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهدها، ولما ماتت (رقية)

(١) د . عبد الرحمن رأفت الباشا، صور من حياة الصحابة، ص ٥٥٨، طبعة دار الأدب الإسلامي، طبعة أولى، و أ . محمد رضا، ذو النورين عثمان بن عفان، ص ١٤ وما بعدها بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٢ هـ - سنة ١٩٨٢ م .

زوجه النبي ﷺ (أم كلثوم) بعد (رقية)، فلقب بذي النورين، وقال : لو كان عندي ثالثة لزوجتها عثمان^(١).

ومن ألقاب سيدنا (عثمان) : (صاحب الهجرتين) ؛ لأنه أول مهاجر إلى الله تعالى بأهله، فقد هاجر إلى الحبشة فرارًا بدينه، ثم عاد إلى مكة، وهاجر إلى المدينة المنورة فاستحق عن جدارة لقب صاحب الهجرتين^(٢).

وهذه الهجرة بعينها فرار من الدنيا إلى الآخرة، وذلك عين الزهد، فقد ترك سيدنا عثمان مكة وأهلها، وترك عشيرته وأقرباءه فارًا إلى الله ورسوله .

عثمان الزاهد في معية رسول الله ﷺ :

لقد تنازل عثمان لإسلامه وهجرته عن جاهه وماله، وأخيرًا عن حياته في سماح منقطع النظر، ولو نظرنا إليه وهو يعطى للدعوة أمواله بغير حساب لرأينا رجلاً من طراز فريد^(٣).

وقد علم النبي ﷺ عثمان قيمة الدنيا، فمع أنه ولد وتربى لأب كان من أكبر التجار في عصره، لكنه مع حياة الترف والرفاهية كان زاهدًا، حلیم الخلق، طيب النفس، سمح الطبيعة، كما كان مشهورًا بالتواضع والحياء، وهذه الخصال، وتلك المناقب نادرًا ما نعثر عليها عند الأغنياء الذين ينشؤون في ظلال وارفة من نعيم الحياة ورغد العيش، ولين الكسب، والكبر والغرور صنو الثراء، ولا يجمع الحلم والتواضع والمروءة والزهد مع الغنى ورغد

(١) الإمام ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩١ .

(٢) د . محمود أبو الفتوح السيد، أوائل الزهاد، ص ٩٤ .

(٣) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول ﷺ، ص ٢٥٠، طبعة دار الفكر .

العيش إلا سمح كريم جواد، وهو ذلك كعثمان بن عفان^(١)، إنه في معية الرسول ﷺ .

نعم ، ما إن دخل ذو النورين في معية الرسول ﷺ إلا وانجلي عن شمس قلبه ظلام الغيم، وطلعت شمس إيمانه من سماء أنوار فؤاده المكتسبة من مشكاة أنوار النبي ﷺ، فرأى بعين بصيرته حقائق الأمور، وارتفعت مكانة إيمانه فوق كل ميل لسواها، إذ كيف يكون ميل لسواها والأمر مأخوذ من فوق معرفة وذوق، ورتاً نبويًا محفوظًا، ومقامًا في مدارج الزهاد ملحوظًا.

إن عثمان لم يأبه بهال في سبيل نصره دينه، بل زهد لأجله عن كل دنيوى، فها هو يوم شاهد على ذلك أبد الدهر من أيام كثيرة، إنه يوم العسرة عند الاستعداد لغزوة تبوك، والجيش يحتاج إلى عتاد وإنفاق وإعداد والوقت في ذروة الحرج، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك بالصدقة، وحثهم على النفقة فجاؤوا بصدقات كثيرة.

فكان أول من جاء أبا بكر الصديق، فجاء بهاله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بما تيسر أوقية، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقًا من تمر، وجهاز عثمان ﷺ ثلث الجيش، جهزهم بتسعمائة وخمسين بعيرًا وبخمسین فرسًا .

قال ابن إسحاق : أنفق عثمان ﷺ نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، وقيل : جاء عثمان ﷺ بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة فشرها في حجر

(١) د . سيد الجميل، العشرة المبشرون بالجنة، ص ٨٥، طبعة دار الكتاب العربى، طبعة أولى، سنة ١٤٠٤هـ - سنة ١٩٨٤م .

رسول الله ﷺ ، فقلبيها في حجره وهو يقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » ، وقال رسول الله ﷺ : « من جهز جيش العسرة فله الجنة » ^(١) .

ولم لا ... وقد هانت عليه الدنيا طلبًا للآخرة ، وهان عليه الجاه فداءً لدين الله ؟ !

وفي قول النبي ﷺ أخذ بيد عثمان وغيره ليتعلموا في جامعته معنى الزهد ، ولتعلموا هوان الدنيا أمام نعيم الآخرة .

وقد بدا زهد عثمان رضي الله عنه عن المال ، يوم أن ألقى المسلمون عصاهم واستقروا في المدينة عند هجرتهم إليها ، وقد فوجئوا بمشكلة من أعصى المشكلات في هذه البيئة القاحلة المحلّة ، والمفاضة الجرداء ، إذ لم يكن ثمة ماء ، وكان بها عين تفيض بياء عذب ، تدعى (بئر رومة) ، وصاحبها رجل يهودى يبيع ملء القرب ماءً بمُد ، وكان رسول الله ﷺ يشتهي ماءها ، ويتمنى لو أن أحدًا من الصحابة اشتراها ، فينسب ماؤها الفرات في لهة الظامى ، فلما استشعر عثمان هذا الميل من رسول الله ﷺ سارع ﷺ وأرضاه بشرائها ومساومة اليهودى عليها ، وكما نعرف عن اليهود وماديتهم من قديم الأزل ، يعشقون المال ويحبونه بينهم ، واشترى عثمان من اليهودى نصفها باثنى عشر ألف درهم على أن تكون لليهودى يومًا ولعثمان يومًا ، فكان المسلمون يستسقون في يوم عثمان ويدخرون ما يكفيهم لليوم التالى ^(٢) .

فها هو عثمان يستغنى عن المال ، ويجوده زاهدًا عنه ، ويفتح يديه وقلبه

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، وأ . محمد رضاف ذو النورين عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين ، ص ٢٢ ، طبعة دار الكتب العلمية ، طبعة ثانية ، سنة ١٤٠٢ هـ - سنة ١٩٨٢ م .

(٢) د . السيد الجميل ، العشرة المبشرون بالجنة ، ص ٩١ بتصرف .

وصدره ووجدانه طلبًا لرضا الله تعالى بغير حدود .

يقول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : قحط الناس في زمان أبى بكر، فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تمسون غدًا حتى يأتىكم فرج الله، فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فسألهم : كم تربحوننى ؟

قالوا : العشرة اثني عشر .

قال : قد زادنى .

قالوا : فالعشرة خمسة عشر .

قال : قد زادنى .

قالوا : من الذى زادك ؟

قال : إنه الله زادنى بكل درهم عشرًا، فهل لديكم أنتم مزيد ؟

فانصرف التجار عنه، وهو ينادى : اللهم إنى وهبتها لفقراء المدينة بلا ثمن وبلا حساب^(١) .

إنه الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله، فصار ذلك في قلب عثمان ألد من كل نعيم، فالمال لا يزاحمه في طريقه إلى الله فقد زهد عنه، وصار أسمى أمانيه أن يأنس بقرب الله، إنه يطلب نعمة لا زحمة فيها، ولذة لا كدر لها، فقد عرف لذة الشوق بعد الذوق، فمن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشفق، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين في أسفل سافلين، فعثمان ذاق

(١) المرجع السابق، ص ٩٢ .

من الشرب بيدى رسول الله ﷺ ، فعرف كيف يزهد عن المال في سبيل طلب ما هو أرقى منه ، فراح التلميذ ليتأسى بمعلمه في جامعة الزهد .

ذو النورين (الخليفة الزاهد) :

ببيع ﷺ يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين ، وعاش في الخلافة اثنتى عشرة سنة ، وقيل : إلا اثنتى عشرة ليلة ^(١) .

ولما جاءته الخلافة ﷺ خرج إلى الناس وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، وقال فيها قال : ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير ، فقال ﷺ : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ الْعَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝ ﴾ [الكهف] ^(٢) .

إن الخليفة الزاهد قد استقبل خلافته بالزهد فأصابها بالنكال وخيبة الأمل من نيل طلبتها منه ، استقبلها وقد أقنع نفسه بغرورها ، فهى لون من ألوان

(١) الإمام ابن الجوزى ، صفة الصفوة ، ج ١ ص ٩٤ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ، للإمام الحافظ أبى الفداء ابن كثير ، ج ٤ ص ١٥٦ .

الدنيا، إنه استقبلها وقد تدرع من فتنتها بالاستغناء عنها وعدم الرغبة فيها، كى لا تهب الوسوس على ساحة قلبه آخذة في اقتلاع بذور اليقين منها، تلك البذور التى استقرت فى أغوار ذاته وهجست بها نفسه .

واستشعر ذو النورين عند الخلافة كأن أسجافاً^(١) ترتفع عن قلبه ، وأن نور الزهد يزداد إشراقاً فى عين ذاته، وأن روحه تزداد رفعة من عالمه المحدود إلى عوالم السمو والترفع والنور.

يقول عبد الله بن شداد : رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وإنه يومئذ لأمر المؤمنين^(٢).

أمير المؤمنين عليه ثوب بأربعة دراهم، يا الله ! فقد نزع الحلل وألقى تاج السلطة وثق نفسه فى ثوب بأربعة دراهم، إنه داهم الدنيا قبل أن تداهمه.

يقول شرحبيل بن مسلم : كان عثمان - أيام إمارته - يطعم الناس طعام الإمارة، ويأكل هو الخل والزيت^(٣).

وكانى بالخليفة الزاهد حين فعل ذلك قد أدرك كنه التورع عن صفات الأمير، وكانى به - وهو الزاهد عن صولجان الإمارة - قد انعكست فيه أنوار زهده إلى محل الإلهام ، فتفجرت جداولها وأنهارها، فتكشفت له سيرة الدنيا .

إن الخليفة وهو فى تقلباته بين جنبات زهده كانت تعتريه هالة من الخوف، خوف كلما ارتفعت موجته كلما علاه تخلص عن متعه ورغباته، بل غير معنى

(١) جمع سَجَف ، وهو الستر.

(٢) الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٠ .

(٣) د . السيد الجميل، العشرة المبشرون بالجنة، ص ٩٢ .

الرغبة لديه من رغبة في الدنيا إلى رغبة عنها، فأصبح يقوم الليل إلا هجعة كما روى الإمام أحمد^(١).

خوف جعله يستصغر الدنيا، بل واستصغر نفسه فيها حتى قال : لو أنى بينى وبين الجنة والنار لا أدرى إلى أيهما يؤمر بى ، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيهما أصير^(٢).

وهكذا ظل الخوف يسوق الزهد، والزهد يسوق عثمان حتى فقد الثقة في مصيره، مع أنه ملا كفيه من زاد الآخرة، إنه من شدة زهده - وهو الخليفة - رُئى نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد^(٣).

ورثى وهو ي قيل في المسجد - وهو يومئذ خليفة - ويقوم وأثر الحضا بجنبه^(٤).

وليس ذلك إلا من قلب حجبت عنه صفة الإمارة ، ورسخت فيه صفة الورع ، فصار مجبورًا عن الدنيا بتجلى الحق .

إن الأمير أصبح لا يأبه بالإمارة، فعن ميمون بن مهران قال : أخبرنى الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان وهو على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل^(٥) فيها قد بسط له ولغلامه حبالًا واحدة، استوى معه على ظهر دابة ، ولم يأمر الغلام بالسير خلفه أو أمام دابته، لا ، إنها إذابة رفعة الإمارة في معنى الإنسانية حتى أسقطت معالم السلطة بالزهد، وأبطلت صفة الخلافة بالمساواة .

(١-٣) الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١٢٩ .

(٤-٥) انظر : حلية الأولياء، لأبى نعيم الأصبهاني، ج ١ ص ٦٠، والإمام أحمد بن حنبل، في كتاب : الزهد، ص ١٢٧ .

شيء من مواعظه ﷺ في الزهد :

لقد ثار إشراق الأنوار في قلب سيدنا عثمان، فكثر خروجه إلى قومه ليدعوهم إلى الهدى والزهد بعزم يفل الحديد، ومن مواعظه للناس قوله :

إن الله تعالى إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تنفى، وإن الآخرة تبقى، لا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المسير إلى الله، اتقوا الله، فإن تقواه جنة من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير، ألزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً^(١).

إن الخليفة كان يطمح في مواعظه مناشدة ملكوت السماء، فتدفقت مواعظه لذلك؛ لأنه أدرك أن النفس لا تهلل إلا للقوة والمال واللذة الجسدية، فراح يعظ عامة المسلمين بالأمصار، فكتب إليهم :

أما بعد ، فإنما بلغتم ما بلغتم بالافتداء والاتباع، فلا تلفتسكم الدنيا عن أمركم^(٢).

وخطب ﷺ فقال : ابن آدم . إن ملك الموت الذى وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت فى الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرک ، واستعد له ولا تغفل، فإنه لا يغفل عنك^(٣).

إنه يحذر من الغفلة بالدنيا عن الآخرة، ويحث على الانتباه حتى لا يؤخذ المرء على غرة .

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٢٢٦ .

(٢) عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٦٩ .

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٧ ص ٢٢٧ .

ومن ألوان مواعظه في ذلك قوله في خطبته : أيها الناس اتقوا ، الله ، فإن تقوى الله غُنىم ، وإن أكيس الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نورًا لظلمة القبر ^(١) .

وهكذا كان عثمان لا يغفل عن متابعة رعيته ومعاينة أحوالهم ، وتربية الزهد عن دنياهم ، حتى لا تشتد أهواؤهم إلى الشهوات ، فتتحمل أرواحهم من أوزار الأجساد الكثير والكثير .

عثمان يمضى إلى حاله شهيدًا زاهدًا :

مع ما ملأ الشعب - في أيام خلافة عثمان - من ترف وفرج ، إلا أن سدَّ القناعة لم يمنع هياج موج عارم من البطر ، فبعض الناس لما شبعوا بطروا ، فعتبوا على عثمان أمورًا ، لو فعلها ما عاتبوها عليه ، ولم يكتف هؤلاء بالعتب ، ولو أنهم اكتفوا به لكان الأمر ، فلقد ظل الشيطان ينفخ في أرواحهم من روحه ، ويبيث في نفوسهم من شره ، حتى تألبت عليه طائفة كبيرة من أوباش ^(٢) الأمصار ، فحصره في داره نحوًا من أربعين ليلة ، ومنعوا عنه الماء العذب ، وقد تناسى هؤلاء الظلمة الطغمة ^(٣) أنه هو الذى اشترى لهم " بشر رومة " من ماله الخاص ليرتوى منه سكان المدينة وورادها ، ولم يكن لهم قبل ذلك ماء عذب يرتوون منه .

ثم إنهم حالوا دونه ودون الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ ، وقد تعامى

(١) نفس التخريج السابق .

(٢) أوباش : أى جمع من قبائل شتى .

(٣) الطغمة : الفئة القليلة .

هؤلاء عن أنَّ ذا النورين هو الذي وسَّع ثانی الحرمین من خالص ماله، لیتسع للمسلمین بعد أن ضاق بهم ذرعًا .

ولما اشتد على عثمان الكرب، وتفاقم عليه الشر نفَّر إلى حمايته نحوَّ من سبعمائة من الصحابة وأبنائهم، فيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، والحسن والحسين أبنا سيدنا على بن أبي طالب، وأبو هريرة، وغيرهم ... وغيرهم .

لكن عثمان ذا النورين، وصاحب المهجرتين، وباذل المعروف، أثر أن يُراق دمُّه على أن تراق دماء المسلمين دفاعًا عنه، وفضل أن تُزَهَّق روحه على أن يقتل المسلمون دونه، فعزم على الذين نفروا إلى حمايته أن يتركوه لقضاء الله، وقال لهم : أقسم على مَنْ لى عليه حق أن يكف يده، وقال لأرقائه ^(١) : مَنْ أغمد منكم سيفه فهو حر .

ولقد غفت عين الخليفة للحظات، فيرى النبي ﷺ ومعه صاحباه أبو بكر وعمر بن الخطاب، وسمع الرسول ﷺ يقول له : « أفطِر عندنا الليلة يا عثمان»، فأيقن عثمان أنه لا حُقَّ بربه، مقبل على لقاء نبيه .

أصبح عثمان - رضوان الله عليه - صائمًا، ودعا بسر اويل طويلة فلبسها خشية أن تكشف عورته إذا قتله الأئمة السفاحون، وفي يوم الجمعة لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة قُتل العَبَادُ الزَّهَّادُ، الصَّوَّامُ القَوَّامُ، جَمَاعُ القرآن الكريم، صهر رسول الله ﷺ، فلحق بجوار ربه وهو ظمآن صائم، وكتاب الله منشور بين يديه.

(١) لأرقائه : أى عبيده .

وحسبُ المسلمين عزاءً أنه لم يكن في قتلة عثمان صحابى، ولا ولد صحابى إلا رجلاً واحداً شارك البغاة الطغاة في أول الأمر ثم استحيا وارتدع^(١). وقد اختلف في قاتله ف قيل : الأسود التجيبي من أهل مصر، وقيل : جبلة بن الأبهم، وقيل : سودان بن رومان المرادى، وقيل : محمد بن أبى حذيفة، ودفن ﷺ بالبقيع، عن عمر يناهز التسعين تقريباً^(٢).

رحم الله الخليفة الزاهد، وجمعنا معه في أعلى فراديس الجنان، وعلمنا منه ما ينفعنا في الدنيا والآخرة.



(١) د . عبد الرحمن رأفت الباشا، صور من حياة الصحابة، ص ٥٦٩ وما بعدها بتصرف .

(٢) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩٥ بتصرف .

رابعاً : أبو الحسن علي بن أبي طالب

واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب .

وأم سيدنا علي : هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت ^(١) .

وسيدنا عليّ هاشمي قرشي، ابن عم رسول الله ﷺ، أول من أسلم من الصبيان ^(٢)، ولد سنة ٦٠٠ بعد الميلاد بمكة، وكنيته (أبو الحسن) نسبة إلى ابنه الحسن ^(٣)، فقد رزقه الله بالحسن والحسين من السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ومن ثم كان إعزاز النبي ﷺ بعلي وأبنائه وأهله ^(٤) .

وهو أول هاشمي ولد بين هاشميين، والخليفة الرابع، وأول خليفة من بنى هاشم، وأحد العلماء والشجعان المعروفين والزهاد المذكورين، والخطباء المفوهين .

وكان حين أسلم لم يبلغ الحلم، قال ابن إسحاق : إنه كان يومئذ ابن عشر سنين، وكان أصغر من جعفر وعقيل وطالب .

كفله النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه ؛ لأن قريشاً أصابها أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال، فأخذ رسول الله ﷺ علياً وضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا وضمه إليه تخفيفاً عن أبي طالب .

(١) الإمام ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٩٦ .

(٢) د . السيد الجميل، العشرة المبشرون بالجنة، ص ١٠٣ .

(٣) أ . محمد رضا، الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - رابع الخلفاء الراشدين، ص ٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت .

(٤) د . السيد الجميل، العشرة المبشرون بالجنة، ص ١٠٣ .

هاجر عليٌّ إلى المدينة، وشهد بدرًا، وأُحْدَا، والخندق، وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا تبوك، فإن رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وله في الجميع بلاء حسن وأثر عظيم، وأعطاه رسول الله ﷺ اللواء في مواطن كثيرة بيده^(١).

على يتسور شرفات الزهد :

انجست في عليٍّ عيون الروح، وأجرى في قلبه من مكنونة الزهد، ما أمدّه أسمى منزلته حتى تسوّر مسالك الزهاد، وتجدت معاني الترفع عن الدنيا في ذاته، وتربعت الحكمة في منطقته، فكانت عالية الأوج، سامية المكانة، وترك الراحة آخذًا بالعزائم والمجاهدات، وسلك أوعر طريق فاجتاز عقباتها الكؤود، وما أوعر طريق إقحام الشهوات، إنه أقحمها حتى راحت كثافة ماديته، وصارت لطيفة كروحه، فالتقى في سيدنا عليٍّ لطف الروح ولطف الجسد، حتى أصبح طريق القرب سهل المنال بالنسبة إليه .

زهده في طعامه ﷺ :

لم يكن زهد عليٍّ لفقر، لا ... فإنه ملك وزهد، يقول ﷺ : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وإنني أربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون ألفاً^(٢).

وإن عليًّا بهذا قد تنزه عن ملاحظة كون جسمه، وارتقى بمتابعة أفلاك روحه، ومن ألوان مطالبة جسده المدحوضة منه بحرمان نفسه منها أنه أتى

(١) أ. محمد رضا، على بن أبي طالب، ص ٥ .

(٢) في حلية الأولياء، لأبي نعيم : ألف دينار، انظر : الإمام أحمد بن حنبل، كتاب : الزهد، ص ١٣٣ .

بفالوذج^(١) فوضع قدامه، فقال : إنك طيب الريح حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتده^(٢) .

وفى إعراضه ﷺ عن الفالوذج خشية اعتياده، شدة حذر من الوقوع في دائرة إرضاء النفس ، حتى تأخذه شيئاً فشيئاً إلى مطالبات دنيوية تكثف جسده على روحه بعد لطف وصل إليه بجهد مرير، وها هو يشتري تمراً بدرهم، فحمله في ملحفته، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ألا نحمله عنك، قال: أبو العيال أحق بحمله^(٣) .

زهد ﷺ في لباسه :

لقد ثار برد الزهد من قلب سيدنا عليّ حتى حجب عن ظاهره معالم الترف، فارتدى أزهد اللباس، إنه كان يتصدق بباله، ولم يلتفت أبداً إلى حاجته من هذا المال، حتى لم يبق عنده من المال شيئاً، وأبى أن يأخذ من نصيبه من بيت المال.

فعن مروان بن عنترة، عن أبيه، قال دخلت على عليّ بن أبي طالب وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد.

فقلت : يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال وأنت ترعد من البرد، فقال : إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي، أو قال : المدينة^(٤) .

(١) الفالوذج : نوع من الحلوى .

(٢) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٣٨٣ .

(٣) الشيخ . محمد الكاندهلوى، حياة الصحابة، ج ٢ ص ٤٤٩ . وأخرجه الإمام أحمد، في كتاب : الزهد، ص ١٣٣ .

(٤) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٣٨٠ .

وخرج ﷺ يوماً بسيفه إلى السوق، فقال : من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم اشتري بها إزاراً ما بعته.

وكان ﷺ إذا لبس قميصاً مديده في كفه فما فضل من الكم قطعه، وقال : ليس لكم فضل عن الأصابع ^(١).

إن سيدنا على لم يرتعن نفسه بتدبر ما يزين هيكله الخارجى، وإن كان ثمة ارتهان لنفسه فلزينة روحه وقلبه وجواه، حتى نال موقعاً في العبودية صعب المنال، يحتاج في سبيل الوصول إليه لأرفع الرجال، وقد وضع النبى ﷺ سيدنا علياً فيه، فقال ﷺ « يا على، إن الله قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها، هى زينة الأبرار عند الله ﷻ، الزهد فى الدنيا، فجعلك لا تزرأ من الدنيا شيئاً، ولا تزرأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً » ^(٢).

وإن علياً بهذا قد توكل معارج الأبرار، وبلغ منزلاً لا يُسارى، فإنه استغنى عن الدنيا، وعجزت الدنيا عن نيل شىء منه وقد زهد عنها، ولم يأخذ منها شيئاً إلا ما يستر جسده أو يقيم أوده، وتلك نظرة لا تعتبر؛ لأنها نظرة لا تغنى من الزهد شيئاً، فإن مثلها فى أحواله مثل ما يملأ فى عصفور من ماء محيط شاسع.

وقد سُئل ﷺ عن رداء وإزار قد وثقه بخرقه، فقال : إنما ألبس هذين الثوبين ليكون أبعد لى من الزهو ^(٣) وخيراً لى فى صلاتى، وسنة للمؤمنين ^(٤).

(١) نفس التخريج السابق .

(٢) الإمام الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ١ ص ٧١ .

(٣) الزهو : الكبر والخيلاء والفخر .

(٤) الإمام . محمد الكاندهلوى، حياة الصحابة، ج ٢ ص ٤٤٩ .

وقد رثى ﷺ وعليه إزار غليظ، ويقول : اشتريته بخمسة دراهم، فمن أربحنى فيه درهماً بعته إياه ^(١) .

لقد اتخذ على الدنيا مطية، ولم يسمح لها أبدًا بأن تحكمه بشوب أو هيثة أو لقمة.

وفي مشهد آخر رثى وقد ركب حملاً ولى رجله إلى موضع واحد، ثم قال : أنا الذى أهنت الدنيا ^(٢) فما هو قد دلّ رجله ولم يحتج للدنيا، وفر منها كلما طلبته حتى أصابها باليأس والحبط لما لم تنل منه ولم ينل منها .

كلمات زاهدة من مواعظه ﷺ :

لم ينقطع منطق أمير المؤمنين على من مواعظه، صارفاً الناس عن التشبث بالدنيا والهوى، فقد عكس لسانه صورة حاله، وترجم عن حقيقة ما يبطنه القلب من أحواله، ومن تعبيراته ومواعظه ﷺ قوله :

ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلةً، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل وحساب، وغداً حساب ولا عمل ^(٣) .

وقال ﷺ مهتاً الزاهدين في الدنيا، المجاهدين لشهواتهم فيها :

طوبى للزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا أرض

(١) نفس التخريج السابق .

(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ٥ .

(٣) رواه البخارى، فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ج ١١ ص ٢٣٩، كتاب : الرقاق، باب : فى الأمل وطوله، تحقيق : محب الدين الخطيب، تبويب محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الريان للتراث .

الله بساطًا، وتراها فراشًا، وماءها طيبًا، والكتاب شعارًا، والدعاء دثارًا،
ورفضوا الدنيا رفضًا^(١).

بهذه الكلمات الزاهدة ترجم الإمام علىّ بوثق عباراته، ودقيق إشاراته عن
موقف الرجال من الدنيا، وخفق قلبه، وذهبت نفسه شعاعًا خشية أن يحيق به
أو برعيته مكروه أو جذبة لتلك الدنيا الفانية، فراح يعظ فيهم قائلاً :

إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى
فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة، ألا وإن الدنيا ارتحلت
مُدبره^(٢).

ويعلو الوجل في قلب الإمام، وتزداد حدة الفزع في لديه ، حتى انصرف
بهمة عالية يهسُّ في قلوب الناس معاني الشوق للباقي، والنزوع من ضيق
طوق الفانى، فوعظهم والرغبة في الآخرة تملؤه، وقال فيهم :

ألا من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن
المحرمات، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومن زهد في الدنيا هانت
عليه المصائب، ألا وإن الله عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مغلدين، وأهل
النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة،
وحوائجهم خفيفة، صبروا أيامًا قليلة للحق راحة طويلة^(٣).

(١) الإمام . أحمد بن حسين البيهقي، شعب الإيثار، بتحقيق : محمد السعيد بسيوني، ج ٢ ص ٣٧٢،

طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٠ م .

(٢) رواه البخاري، انظر : الفتح، ج ١١ ص ٢٤٠ .

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٧ ص ٣٨٤ .

ومن كلامه أيضًا في ذلك ما قاله في خطبته - بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد : فإن الدنيا قد أدبرت، وأذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، ألا أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر^(١) .

وقام يومًا وصيحة النذير تبلغ منه مبلغ الرهبة والتفير، فقال :

أيها الناس ، اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد موت، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها دار البلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها زوال لا تدوم أحوالها، ولن يسلم من شرها نزالها، بينما أهلها منها في رخاء وسرور، إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والرخاء منها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها .

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من زهرة الدنيا على سبيل قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارًا، وأشد منكم بطشًا، وأعمر ديارًا، وأبعد آثارًا، فأصبحت أموالهم هامدة بعد نقلتهم، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنهارق الممهدة الصخور والأحجار في القبور، التي قد بنى على الخراب فناؤها، وشيد بالتراث بناؤها^(٢) .

وهكذا كلما أقبلت الدنيا على أمير المؤمنين أعرض عنها، وكلما ارتفعت تلثم

(١) نفس التخريج السابق .

(٢) الإمام ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٠٢ بتصرف .

قدمه ركلها، فهذا بيت المال يمتلئ بالأموال، ويأتى خازنه إلى سيدنا علىّ ويقول : يا أمير المؤمنين ، امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء - ذهب وفضة - فيقول ﷺ : الله أكبر .

ثم قام متوكلًا عليه حتى أتى بيت المال، وأمر فنودى فى الناس، فأعطى جميع ما فى بيت مال المسلمين وهو يقول : يا صفراء يا بيضاء ، غرى غبرى، حتى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم قام يكنس بيت المال ورشه بالماء وصلى فيه ركعتين ^(١) .

بهذا الزهد تحلى أمير المؤمنين أبو الحسن والحسين ﷺ حتى غشيت جلالته الأبصار، وخشعت أمام قدره العيون، وخفضت له جناح الضعة، وإذا نظرت إلى حاله المقل، امتلأت الصدور هيبة منه، وبُعِدَت همة الإمام ونزعت إلى سنى المراتب حتى أصبح يؤم معالى الأمور مع أوائل الزهاد خلف رسول الله ﷺ .

وحاشاه ﷺ أن يبغض الدنيا لذاتها، لا ... إنه أبغض إفساد الصالح فيها، فقد خلقها الله صالحة، ولولا ذلك ما نهانا عن الإفساد فيها ﴿ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] ، فقد أيقن أمير المؤمنين ذلك، فأعراضه عنها إصلاح فيها؛ لأن حقيقة الإقبال على الدنيا - كما خلقها الله تعالى - يشبهه الإعراض عنها، وتلك صفتها، الإعراض عنها، لذلك لما ذم رجل الدنيا عنده ﷺ قال له :

الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى وزاد لمن تزود منها، ومهبط وحى الله، ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه،

ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها، وقد آذنت بغيلها، ونادت بفراقها، وشابت بشروورها السرور، وببلائها الرغبة فيها، والحرص عليها ترغيبًا وترهيبًا.

فيا أيها الذام للدنيا، المعلن نفسه بالأمالى، حتى خدعتك الدنيا، أو متى اشتدمت إليك، أممصارع آبائك في البلاد، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى، كم مرضت بيديك، وعللت بكفيك، ممن تطلب له الشفاء، وتستوصف له الأطباء، لا يغنى عنه دواؤك ولا ينفعه بكاؤك^(١).

ومن هذا الكلام نفهم أن موقف سيدنا على لم يكن موقف الطاعن في نعم الدنيا، المعرض عن الحلال فيها بالتحريم، لا ... إنه موقف النذير من استعمال أدواتها فيما يغضب الله تعالى، إنه موقف النذير من استغلال نعمها فيما يجلب سخط الله في الآخرة، إنه موقف النذير من اتباع أهوائها فيما يعطل الهداية فيها.

بهذه الأطياف العابرة، المعبرة عن الألفاظ النادرة، تكاملت شخصية سيدنا على بن أبى طالب، الذى نطق بالحال والمقال معبرًا عن ترجمان الأشواق، جاذبًا العقول والألباب إلى معامع الأذواق، وهو الأمير والسلطان والخليفة الزاهد العابد.

أمير الزاهدين فى عداد الشهداء :

فاضت قلوب المسلمين بالأسى، يوم سقط الإمام الزاهد شهيدًا، وبات ﷺ بين الفرحة الغامرة بمنازل النبیین والصديقين وبين دهشة الموقف، وارتسمت

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٧ ص ٣٨٥.

على وجوه الناس ملامح الرثاء، رثاء على فدائي رسول الله ﷺ، رثاء على من أدهش الدنيا بزهده، رثاء على من جاع ليشبع الناس، رثاء على من أمَّ المساكين ودافع عن الفقراء، رثاء أدمع السماء، وأنبث حدائق الأحزان في الأرض .

إنها المؤامرة لقتل عليٍّ قد أبدت حقدًا لتعبر عن بغضاء أهلها، فقد اجتمع زعماء الشر الثلاثة، عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو ابن بكر التميمي، فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولائهم، فراحوا يقسمون الوليمة بينهم، إنها وليمة الغدر والخيانة .

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليَّ بن أبي طالب، وكان من أهل مصر .

وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

فتعاقدوا وتوافقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسموها، وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يشب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المضر الذي فيه صاحبه الذي يطلب .

فأما (ابن ملجم المرادي) فكان عداده في كندة، فخرج فلقى أصحابه بالكوفة، وكاتمهم أمره كراهة، أن يظهروا شيئًا من أمره، فلقى امرأة من تيم الرباب يقال لها : فطام ، ابنة الشجنة، وكان أبوها وأخوها قد قُتلا يوم النهر على يد سيدنا علي، وكانت فائقة الجمال، فلما رآها التبست بعقله، ثم خطبها، فاشتربت عليه لقبول زواجها ثلاثة آلاف درهم، وعبد، وقينة، وقُتل على بن

أبى طالب، فذلك مهرها، فرضى بذلك وقال : أما قتل على فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتله، فلك ما سألت، فأعانتته برجل من قومها يقال له : (وَرْدَان) ورجل يدعى (شبيب بن ثَجْرَة) فأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل الشدة التى يخرج منها على الباب ، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف ، فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه (أى: جبهته): أما وردان فهرب، حتى قتله رجل من بنى أبيه بسيفه، وأما شبيب فلحقه رجل من حضر موت يُدعى عويمراً، فجشم عليه فأخذ منه السيف، فلما رأى الناس قد أقبلت عليه خشى على نفسه فترك شبيباً، ونجا شبيب فى غمار الناس .

وأما ابن ملجم فشدوا عليه، فأخذوه، إلا أن رجلاً من همدان يُكنى أبا (أرماء) أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه، وتأخر على ، وتقدم جَعْدَة بن هبيرة بن أبى وهب فصلى بالناس، ثم قال على : على بالرجل . فأدخل عليه، ثم قال : أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟ ! .

قال : بلى .

قال : فما حملك على هذا ؟

قال : شحذته - أى سيفى - أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه .

فقال على : لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه، ثم قال: النفس بالنفس، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى، وإن بقيت رأيت فيه رأى .

ودخل الناس على الحسن فزعين لما حدث، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف اليدين، إذ نادته أم كلثوم بنت علي وهي تبكي : أي عدو الله، لا بأس على أبي والله مخزيك.

قال : فعلى من تبكين، والله لقد اشتريت هذا السيف بألف وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقى منهم أحد .

فدعا سيدنا علي حسنا وحسنا، وقال : أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء رُوي عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم وأغثا الملهوف، واصنعا للأخرق، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الله لومة لائم^(١) .

إن علياً يوصي بالزهد عن الدنيا والدم يقطر منه، والموت يناديه، وكأنه لا يأبه بألم ولا بموت، وكأنه استشعر ألم الدنيا في نفسه فأنساه ألم الجراح، وظل يوصي حتى زهقت روحه إلى بارئها وهو يقول : (لا إله إلا الله)، فظل يرددها إلى أن قبض ﷺ.

قال العلماء : ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالخوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان، وقيل : ليلة إحدى وعشرين منه، سنة أربعين، فبقي الجمعة والسبت ومات ليلة الأحد، عن عمر يناهز الثلاث والستين، وقيل : خمساً وستين، وقيل : سبعاً أو ثمان وستين^(٢) .

وقد انتقم الله له بقتل ابن ملجم ، مع أنه لا يُرضينا في دمه أقصى العَدِّ

(١) أ. محمد رضا، علي بن أبي طالب ، ص ١٨٨ - ص ٢٩٢ بتصرف واختصار .

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٠٤ .

ومنتهى الحد من أمثال ابن ملجم ، وقد قتل ابن ملجم أشنع قتله بعد أن قطعوا أعضائه عضواً عضواً، وكُحل عينيه بمسار محمى حتى سالتا، ثم جعلوه في قوصرة (وعاء من قصب) وأحرقوه بالنار.

وقد ذكر هذه الرواية في قتل ابن ملجم ابن سعد في الطبقات، كما ذكرت في أسد الغابة، وتاريخ أبي الفداء^(١) وغيرها .

رحم الله جدنا علياً شيخ الزهاد ، ونبراس أهل الورع، وقدوة أهل الصفاء، ومشكاة أهل الزهد والنقاء، رضى الله عنه وأرضاه .



(١) أ. محمد رضا، علي بن أبي طالب، ص ٢٩٦ بتصرف واختصار .

